

المثقفون

وجوه من الذاكرة

سليمان فيّاض

حلمي التوني


تليجرام
هنا سور الازبكية
غواص في بحر الكتب
باحثون
محمد خطاب

المثقفون

وجوه من الذاكرة

دار سعاد الصباح
ص . ب : ٢٧٢٨٠
الصفاة ١٣١٣٣ - الكويت
ص . ب . ١٣ المقطم - القاهرة
فاكس : ٥٠٦١٠٣٠
٣٥ ش محى الدين أبو العز
ت ٣٤٩٧٧٧٩ - ٣٤٩١٧٢٧

رقم الايداع ٩٢/٥٥٢١
I.S.B.N
977 - 5344 - 01 - 8

الطبعة الأولى
١٩٩٢

الاشراف الفنى : حلمى التونى

المثقفون

وجوه من الذاكرة

سليمان فيّاض

دار سعاد الصباح

تحــــولات كـــاتب

نسخ بالكربون

بين كتاب مجلة « الرسالة للزيات» ، شدنى إليه الناقد الكبير «سيد قطب ». جذبنى إليه قلمه المرهف السيّال ، ولغته الشفيفة ، الموحية بما وراءها من معان وظلال ، وكأنها غلالات رقيقة نسجتها أنغام ، بدت لى مقالاته على صفحات « الرسالة » آية من آيات النثر الفنى فى أروع وأوضح ذراه .

كان « العقاد » صاحب أسلوب عصرى يستمد منطقه وتقاسيمه من أسلوب « ابن المقفع » ، وكان طه حسين صاحب أسلوب عصرى آخر ، يستمد ترسّله من أسلوب « أبى عثمان الجاحظ » ، وكان كلاهما يتربّع على عرش عصرى من عروش فصحى اللغة . وكانت ساحة النثر فى أدب المقال ، تبدو وكأن ليس فيها من مزيد . أماطه حسين ، فكان نسيج فريد فيه ، وكذلك كان المازنى ، والعقاد ، والرافعى . وبدا الأمر وكأن ليس بوسع أحد سواهم أن يقدم أسلوبا عصريا جديدا فى «أدب المقال »

وجاء «سيد قطب » ، ليقدم أسلوبا آخر ، جديدا ، يجمع فى إهاب كلماته وتراكيبه ، بين قدرة طه حسين على التنغيم والإيقاع ، وقدرة العقاد على المنطق وحسن التقسيم في جمله الطوال والقصار ، بين قدرة

طه حسين على توليد أبنية مهملة من الألفاظ ، وقدرة العقاد على توليد الأفكار والمعانى والاحتمالات والترجيحات ، بل ويضيف إلى قدرات العملاقين هذه السيولة الدفّاقة ، واللاذعة السخرية للمازنى ، دون أن يقع فى شراك الكلمات والتراكيب العامية ، ويضيف هذه التسجيعات للرافعى، دون تكلف فيها أو إغراق وإسراف ، وغمرنى يقين بأن الأسلوب هو الكاتب ، وأن الكاتب هو أسلوبه ، انتقاءً للألفاظ الدالة ، والموحية ، واختيارا للجمل الطوال أوالقصار ، فى جوّ يصنع إطار الموضوع . ويقدم له صوره وإيقاعه ورؤاه .

كان أول ماقرأت لسيد قطب ، في سن الصبا ، ونحن ندرج مع اللغة والأدب ، مقالا على صفحات « الرسالة » ، يحمل عنوان : « نسخ بالكربون» . كان المقال عن سيدة الغناء أم كلثوم ، وعن الموسيقار محمد عبد الوهاب ، وكيف أن أم كلثوم خامة صوتية ، كونية ، مدهشة ، لم تجد بعد الملحن الذى يحررها من طابع التطريب فى الأفراح ، والليالى الملاح ، ومجالس السمر ، وكيف أن من يحاولون تقليد أم كلثوم نسخ بالكربون ، لاترقى إلى أصالة الأصل وبهائه ونصوعه ، إلى آخر ماورد بالمقال .

وشد انتباهى إلى سيد قطب فى مقاله ذاك ، روح دفاق فى قلب الكاتب، يجعله يغمس قلمه فى قلبه ، وضميره ، ومشاعره ، وعقل فطن يوجه اليد التى تكتب ، معلنا تمرده على كل محظور لايقبله المنطق ، ولاتباركه التجربة .

وقلت لنفسى : هذا كاتب له قضية ، بل قضايا فى الحياة ، والمجتمع ، والناس . صوت من أصوات التقدم الكونية بين البشر ، ويقف طليعة فى مجال النثر الفنى ، لهذا الجيل التالى لجيل الرواد من أصحاب القضايا

الاجتماعية ، والثقافية ، والأساليب الأدبية .

وجاءت مقالاته التالية ، رسائل إلى صديقه الكاتب « عباس خضر » من أمريكا وكان قد ذهب فى رحلة إليها ، وتكشفت لى من هذه المقالات / الرسائل ، قضيته الكبرى فى ذلك الحين ، قضية العروبة والأصالة ، بل قضية حضارة الشرق بأسره التى أثمرت قيما إنسانية وأديانا وضعية وسماوية ، فى مواجهة حضارة الغرب ، التى تفككت فيها الأُسر ، وشحُب الشعور بما هو تواصل إنسانى فى العلاقات .

وفيما بعد ، حين اتسعت دائرة قراءتى ، أدركت أنه كان كاتباً لايتحيز ولايتردد فى مواجهة صدمة الحضارة الغربية ، أدرك بسرعة وبحسم مالها من فضل ، ومابها من قصور ، وأدرك بفطنة ويقين مانملكه من تراث رفيع من القيم الإنسانية ، ومانفتقد من تنظيم للعمل ، وأخذ بوسائل التطور العصرية . لم يقع فى فخاخ الصراع الحائر فى النفس ، الذى وقع فيه « أديب » طه حسين «وأيامه» ، و«لاعصفور» الحكيم ، ولا « إسماعيل » يحيى حقى . استوعب دروس الصدمة بسرعة ووضوح ، مثلما فعل من قبله رفاعه ، والشدياق ، فى مواجهة صدمة الحضارة .

تفتت قلبى معه ، وهو يصف مشهد رجل عصر عنقه فى أمريكا المصعد الكهربائى ، فتدلى لسانه ، والناس من حوله لايرتجفون للمشهد ، وإنما يضحكون له ، ويقلدون تدلى اللسان من الفم المفتوح فى العنق المعصور ، وشعرت بموت الإنسانية هناك ، وامتلأت بالدهشة ، وهو يقول ساخراً لإحداهن ، هناك ، على المائدة : إن الناس فى بلاده يأكلون البطيخ وعليه الفلفل والشطة ، فتسارع بسكب الفلفل والشطة على البطيخ، وتأكله ، وتتلذذ ، وتصيح : أوه .. كم هو لذيذ .

واحسب أن هذه المقالات وسواها ، مما نشرته له الرسالة فى سنوات الأربعينيات لم تجمع بعد فى كتاب ، مثلما لم يجمع مانشره على صفحات الرسالة من أشعار فى ديوان ، انتقى هو منها مقالاته النقدية ونشرها في كتابه « كتب وشخصيات »

وليت أحد الناشرين يجمع بقية مقالاته وينشرها فى أكثر من كتاب ، فهى حلقة مفقودة من تحولات الكاتب « سيد قطب » ، وتشهد على مرحلة ثقافية واجتماعية ، من مراحل الثقافة والحياة الاجتماعية فى مصر العربية ، وكذلك كتاباته فى صحيفة « مصر الفتاة » ، وفى مجلة « الكشكول » .

النقد التكاملى

إذ كنت طالباً بمدينة المنصورة ، رحت أبحث فى المكتبة العامة بالمدينة، وأجمع من مكتبات السوق كتب سيد التى أحببتها ، كانت كلها كتبا نقدية مباشرة ، أوترتبط بالنقد بسبب من أسباب بلاغة التعبير ، وفصاحة الأسلوب ، وحسن الأداء ، واستقامة المعالجة .

كان بينها كتابان : « التصوير الفنى فى القرآن » ، و« مشاهد القيامة فى القرآن » ، وكلاهما درس من دروس بلاغة التعبير فى القرآن ، إذ تتموج مع تموج الموضوعات والسياقات .

وكان بينها كتاب نقدى بحت ، توقفت عنده طويلا ، وكان الكتاب عن « النقد التكاملى » ويطول الحديث ، لو أقدمنا عليه الآن ، عن موضوعات أبوابه وفصوله ، وعن منهجه ورؤيته ومنحاه . ووجدتنى أربط بينه وبين كتاب آخر ، فى مجال آخر ، قرأته ليوسف مراد ، ذلك هو كتاب « علم النفس التكاملى » .

كانت ثمة مدارس فى علم النفس ، وكانت ثمة مدارس فى النقد الأدبى، وكان لكل منهما مناهجه ، ودهشت لمحاولة سيد الجسور فى خلق منهج أدبى واحد ، من مناهج الدراسات النقدية ، وتجمع بينها فى إهاب ، مثل دهشتى من محاولة يوسف مراد الجسور فى صهر مناهج المدارس النفسية فى منهج واحد .

ويدا لى الأمروكأن روح عصر تتحرك فى النفس العربية ، والعقل العربى ، وتوجهها نحو هذا الصهر للمتفرقات فى مدارس العصر فى بوتقة واحدة ، فالموضوع واحد ، وسبل النظر إليه تتعدد . وكأن النفس العربية ، والعقل العربى ، يميلان أبدا إلى هذا النهج الحضارى منذ ميلاد الحضارة العربية الإسلامية فى العصر العباسى ، فهو النهج نفسه الذى سار عليه إخوان الصفا ، وفلاسفة المسلمين وعلماؤهم ، منذ القرن الثانى للهجرة الثامن للميلاد ، ولقد ظلوا على هذا النهج يسيرون فى دأب مقدور حتى فى عصور الانحطاط السياسية إلى بدايات القرن الميلادى التاسع عشر .

وكان بينها كتاب « كتب وشخصيات » ، وكنت قد قرأت قبل وقت قريب رواية « خان الخليلى » لنجيب محفوظ ، واكتشفت كاتبا واقعيا ، يقف على قدم المساواة فى المحاولة مع بلزاك ، وديكنز ، وزولا ، ووجدت فى هذا الكتاب دراسة نقدية لهذه الرواية ، ودراسة أخرى عن رواية « مليم الأكبر » لعادل كامل ، الذى عرفت فيما بعد أنه رائد الواقعية الحقيقى فى مصر ، والأستاذ الأول لنجيب محفوظ على تقاربهما فى سنوات العمر ، مثلما عرفت فيما بعد أن سيد قطب كان هو أول ناقد يقدم هذين الكاتبين للناس ، فى وقت كان النقاد فيه لايكترثون بغير نقد الشعر ، ونقد أدب

التراث ، ولايحفلون فى قليل أوكثير ، بنقد المسرح والقصة ، إلا فى نادر الأحيان .

ولم يدر بخاطرى لحظة أن كاتبى سيد قطب ، سوف يتوقف ذات يوم عن عطائه النقدى ، ومساهمته فى الحياة الأدبية ، وسوف يخسره المبدعون للأدب ، فى شكليه الجديدين خاصة : المسرح ، والقص . إلى درجة أنه كتب سطورا قليلة ، وجهها للشاعرة نازك الملائكة ، يعتذر فيها عن المشاركة بمقال نقدى فى مجلة الآداب البيروتية ، لأنه وجه اهتمامه وعمره لقضية أخرى أكبر وأجل هى الدعوة إلى مجتمع الإسلام .

الخراف الضالة

دهشت ذات يوم حين رأيت لسيد قطب ، كتابا يحمل عنوان : « العدالة الاجتماعية فى الإسلام » ، قلت لنفسى : « من النقد يتحول الكاتب سيد قطب إلى الكتابات الإسلامية ، مثلما تحول من قبله طه حسين فى : «على هامش السيرة » ، و « الشيخان » ، و« الوعد الحق » و « فجر الإسلام » ، و« مرآة الإسلام » ، ومثلما تحول من قبله العقاد فى « العبقريات » وسواها من كتبه الإسلامية .. » .

قرأت كتاب سيد عن « العدالة الاجتماعية فى الإسلام » . أعجبنى نهجه فيه ومنطقه وحيثياته من نصوص القرآن والحديث وواقع التاريخ ، لكننى ظللت أسأل نفسى بحيرة : لم كان هذا التحول فجأة ؟ هل كان كتاباه « التصوير الفنى » و« مشاهد القيامة » ، وهما من النقد البلاغى الحديث ، إرهاصاً بسيره فى طريق الدراسات الإسلامية ؟

هل يئس الكاتب من دور لفعالية الكلمة المبدعة والناقدة فى تغيير المجتمع ، وشعر بخلوّ الساحة العربية من فلسفة عصرية ، تفجّروتحدُو

إمكانيات المجتمع العربى وناسه ، فطرق بكتابه هذا الدرب ، ليقدم بالإسلام نهجا وفلسفة لوطن وعصر .. أم أن سيد يجرى عليه مايجرى على غيره من الكتاب العرب من تحولات ، فى زمن عز فيه تحت سماء الشرق ، العثور على فلسفة ، ونظام يحقق التوازن العصرى لناس هذه البلاد ؟ أم أن الخراف الضالة لاتلبث أن تعود إلى حظائرها بعد طول اغتراب ؟

ولم أجد جوابا لسؤالى إلابعد لقائى بضع مرات لسيد قطب، فى داره الفسيحة ، بضاحية حلوان ،وكانت الثورة قد بسطت سلطان الجيش على أرض مصر ، وأخذت تناوئ الأحزاب ، وكنت قد كتبت مقالا بمجلة الرسالة ، بعثت به بالبريد من المنصورة ، ونشرته الرسالة فى باب عرض الكتب ، وكان المقال عن كتابه الإسلامى التالى : « السلام العالمى والإسلام »

وكان سيد قد أخذ يكتب تفسيرا للقرآن ، تحت عنوان « فى ظلال القرآن » . وينحو فى تفسيره نحوا نفسيا ، وبلاغيا ، ويفسر فيه القرآن بالقرآن ، وبالحديث الصحيح ، وبمناسبة النزول للآيات ، فى لغة شاعرية نثرية عزيزة المنال ، وقدر له أن ينجز بقية أجزاء هذا التفسير وهو فى قلب السجن ، قبل شنقه بحبل مجدول !

اللقاء الأول

فى اليوم الأول لى بالقاهرة ، ومن فندق شعبى بشارع « كلوت بك » بحثت فى دليل التليفون عن رقم تليفون كاتبى الأثير ، وجاءنى صوته ، فأخبرته باسمى ، وبرغبتى فى زيارته ، فوصف لى العنوان إلى بيته فى حلوان ، وأرشدنى إليه بدقة وكأنه حريص على اللقاء .

وجدته جالسا فى حديقة بيته ، تحت شجرة عتيقة ، تتدلى منها بين الأغصان مصابيح الكهرباء ، أخذنى خادم إليه ، كان يلبس جلبابا أبيض ، كان أسمر اللون ، بيضاوى الوجه ، يحمل عينين واسعتين ، غافيتين أبدا، وبدا لى وهو ينهض مصافحا نحيل القوام ، وكان يجلس معه الشاعر « محمود أبو الوفا » ، وشعرت إذجلست معه ، (وعينا أبى الوفا ترقبنى) بغربته ، وغربتى .

شكرنى على مقالى عن كتابه ، وشردت عيناه ، ينصت إلى السكون ، وزقزقة ما ، خافتة ، لطيور بين الأغصان فى أشجار الحديقة ، سألنى من أين أنا ، وشردت عيناه ، وران الصمت ، سألنى فيم قدومى إلى القاهرة ، وشردت عيناه ، وران الصمت ، شعر أبو الوفا بحرجى ، فأخذ يحدثنى ، وسيد قطب يسمع وكأنه لايسمع ، وتذكرت ماكتبه يوما طه حسين عن الحكيم إذقال عنه : (هو غائب حاضر» ، و«حاضر غائب » ، ترددت ، ثم سألته عن رأيه فى هذه الثورة ، ابتسم وقال لى :

– هنا ، تحت هذه الشجرة ، كان الضباط الأحرار يعقدون بعض اجتماعاتهم معى ، فى فترة التمهيد للثورة .

– كانت الحديقة واسعة ، يحيط سورها بها ، وبهذا البيت الريفى المطلى الجدران ، المنزوى فى جانب يسير منها . وكانت عيناه قد عادتا للشرود ، وكأنه لاوقت فى الزمن ، ولاحساب لمرور اللحظات ، وكأن الزمن هو ذلك الزمن الذى فى داخله وحده ، رآنى أجوس بعينى فى الحديقة ، فقال لى ضاحكا :

– لست غنيا ، كان معى ألفا جنيه ، وهذا البيت كان لمأذون حلوان ، مساحته نصف فدان ، اشتريته منه بكل ماكان معى ، وفى حديقته أقضى

ليلى ، ومكتبى بجانب هذه النافذة هناك ، الخضرة تساعد الكاتب على الكتابة ، ألست معى ؟

وشردت عيناه ، كأنما أرهقته الكلمات ، أوكأنه اعتاد أن يكتبها ، حتى نسي النطق بها ، ونهض عائدا إلى البيت ، حتى ظننت أننى لم أعد مرغوبا فى بقائى ، فهممت بالانصراف ، فضحك « أبو الوفا » وقال :

– انتظر سيعود ، الوقت فى الليل هنا بلاحساب .

وعاد سيد قطب ، يحمل مظروفا ، أخرج منه صورا ، وأخذ يريها لى واحدة واحدة ، وكان هو فى كل صورة ، وتحت هذه الشجرة . وكانت كلها صورا ليلية أخذت فى ضوء الفلاش . وفى كل صورة كان هؤلاء الضباط الأحرار ، وهو بينهم أبدا واسطة العقد ، وإذ رددت إليه آخر صورة، قلت :

– لاأرى بينهم محمد نجيب .

فابتسم ، وقال :

– هذا جاءوا به واجهة للثورة . الرتبة العسكرية لها حساب .

– وأرانى الصورة التى رددتها مرة أخرى ، وأشار إلى جمال عبد الناصر . وقال :

– هذا هو قائد الثورة الحقيقى ، يتوارى الآن وراء نجيب ، وغداً سيكون له شأن آخر .

وأعاد الصورة إلى المظروف . ووضعه على أريكة خضراء مثل أرائك الحدائق العامة ، قلت :

– أراض أنت عن هذه الثورة ؟ !

قال سيد قطب :

– لاأجد فى تطور أمورها مايريح ، فهؤلاء الأمريكان يحاولون احتواءها بدلا من الإنجليز ، أتفهم ماأعنيه ؟

هززت راسى ، وأطرقت . وسمعت صوته يقول :

– هل تحسّ كشاب أنهم سيفلتون من الاحتواء .

ولم أجد على لسانى ما أجيب به ، قلت بتردد :

– هل تحولت عن النقد :

دهش ، وقال :

– من قال ذلك ؟

ثم ابتسم وقال :

– الكاتب حين تكون له قضية ، يكتب فى النقد ، وفى غير النقد ، وغايته أن يبعث العافية فى أوصال الناس ، الكاتب ليس ناقدا فحسب .

وطالت الجلسة ، وطال الصمت . وفرغت أقداح الشاى للمرة الثانية ، وانصرفت مودعا ، عائداً إلى محطة المترو ، عبر شوارع لايقطع سكونها ، سوى نباح الكلاب ، فى ليلة مظلمة ، شاحبة الأنوار ، مغبرة المصابيح .

الأطياف الأربعة

أمام بائع صحف .على رصيف . بوسط القاهرة ، رايت كتابا يحمل عنوان : « الأطياف الأربعة » ، ودهشت إذ وجدت عليه اسم سيد قطب ، وأسماء ثلاثة قدرت من اللقب أنهم إخوته ، اشتريت الكتاب ، وجلست

على أول مقهى مع الضحى .

كان الكتاب لونا من المذكرات وسيرة الحياة فى مجتمع متخلف ، فى قرية نائية من قرى مصر ، قدم لى الكتاب حياة الطفولة والصبا لسيد وإخوته ، فى عالم القرية ، مثلما فعل طه حسين فى الجزء الأول من أيامه.

وبدت لى سيرة الإخوة الأربعة ، الصبية ، أكثر صدقا ، وبساطة وواقعية ، من أيام طه حسين ، ومن عالم معذبيه . وعجبت لأن الأسلوب واللغة ، هما أسلوب سيد ولغته ، فهل صبَّ قلمه ماكتبه الإخوة فى نسق واحد ، أم أنه هو الذى فكر وكتب مافكر فيه ؟ وهل تراه ، وحياته مشتركة مع حياة إخوته ، كان يترجم لفترة من العمر، لنفسه ، وللإخوة يحبهم ، فى آن واحد ، وهو لهم بمثابة الأب والأم والأخ الأكبر معا ؟ ..

فيما بعد لم أعرف من بين الإخوة الأربعة ، كاتبا ، عدا سيد ، سوى أخيه : محمد قطب ، وكان فى كتاباته ، بعد أن تحول سيد تحوله الأخير ، مثل الصدى للصوت ، والشارح للمتن والحاشية للشرح ، والهامش للنص ، والذيل للفصل . كان يردد أفكار أخيه وربما تكون الفكرة فقرة ، مجرد فقرة فى كتاب ، فتصبح تحت يده كتابا لأخ ذاب فى أخيه ، وقارئ انصهر فى مثله الأعلى ، ومن المدهش والعجيب أنه كان يحتذيه فى أسلوبه وألفاظه ، وإيقاع جمله ، حتى فى هذه الحروف الممدودة فى الكلمات الأخيرة من الجمل ، أو الفقرات ، قبل الحرف الأخير.

وأحزننى أن أعلم ، من أحاديث الأدباء فى مقاهى الأدب ، أن سيد قطب، يعيش برئة واحدة ، بها يمدّ جسده بالهواء ، وأنه ربما بسبب هذه الرئة الوحيدة ، يلزم بيته ، ويحيا من قلمه ، ويغادر وظيفة باللجنة الثقافية

بوزارة التربية والتعليم ، ويترك الأدب إلى الكتابات الإسلامية ، ودور الناقد ، لدور الداعية . وأنه يوشك على الولوج فى عالم التصوف .

واستبعدت بينى وبين نفسى ، أن يتصوف سيد ، فمن يحمل مثل روحه ، حتى فى بدن نحيل ، ومن يصبح القلم فى يده الصغير مثل سوط فى يد عملاق ، لايلج أبدا طريقا إلا من الباب الضيق ، ومثله لايهرب من مشاق الدنيا وأبوابها الضيقة ، إلى عالم التصوف ، وأبوابه الوسيعة ، كفضاء الدنيا .

اللقاء الآخير

نُشِر فى صحيفة أن سيد قطب ، يلازم فراشه لمرضه بوعكة صحية قد ألمت به . ومع أننى منذ أن سار سيد فى طريق غير الذى اخطه لنفسى ، وفى درب غير الذى كنا ، نحن الأدباء ، نسير فيه ، فقد قررت الذهاب لزيارته ، فأنا أدين له لم ازل فى روحى بالكثير .

كان أمر « الإخوان المسلمين » قد آل إلى المرشد العام الجديد ، « حسن الهضيبى » وكان « سيد قطب » قد صار ، بعد ضرب الثورة للأحزاب بالإخوان ، أشهر وألمع كاتب فى صحيفة الإخوان الجديدة « الدعوة » . صار كاتبا ثوريا على النهج الإسلامى ، تحت راية الإخوان المسلمين » ، ولم يُخفِ شكوكه عن قلمه ، ولاعن الناس ، وهى شكوك ظهر فيما بعد أنه كان مخطئا فيها جميعا .

كان يهاجم هذه الاتصالات بين الثورة وبين الأمريكان ، ويوشك أن يدعو الناس إلى الانتفاضة ضد ضباطها الأحرار ، مثلما كان يدعو الفدائيين قبل الثورة ، للاستدارة إلى ضرب الجهات التي تعوقهم عن العمل الفدائى ضد الإنجليز فى داخل مصر ، فهذه الجهات

هى آنذاك – فى رأيه – العدو الرئيسى ، والانجليز سيأتى دورهم بعد ذلك حين تتوحد الصفوف ، وتتطهر أرض الوطن .. ومثلما كان يفعل فى صحيفة « مصر الفتاة » تحت عنوان « وراء الرغيف » ، ومثلما كان يفعل فى مجلة « الكشكول » ، محرضا فى الاثنين للناس على المطالبة بالعدالة ، لينال الفقراء والمستضعفون حظهم من الدنيا ، ويكون لإنسانيتهم حق الأخذ والعطاء .

كان راقدا على سريره ، لاهث الأنفاس ، يعانى من برد شديد ، مدَّ لى يده الصغيرة مصافحا ، وهو ينهض بنصف قومة ، وجلست بجانبه على مقعد . وقلت له ضاحكا :

– ظننت أن مرضك مرض سياسى .

فقال لى :

– إن شئت الحق ، الاثنان معا .

تذكرت يوما سمعت فيه عن محاضرة له فى قاعة « على مبارك » بكلية الآداب ، جامعة القاهرة ، فذهبت لأسمعه ، يتحدث خطيبا لأول مرة. ورأيت ذلك النحيل البدن ، الشارد العينين ، الذى يؤثر القول بالقلم ، عن القول باللسان ، خطيبا مفوّها ، وداعية إسلاميا حاضر الذهن ، بالآيات ، والأحاديث ، ووقائع التاريخ ، يحدث الحاضرين فى القاعة عن طريق الإيمان ، وعن عدم فصل الإسلام بين الدين والدنيا ، والمادة والروح ، والمسجد والدولة ، مثلما تفعل حضارات الغرب والشرق ، ويروي من سيرة حياته (سمعت ذلك بأذنى) أنه ظل ملحدا أحد عشر عاما ، حتى أخذ يكتب كتابه « العدالة الاجتماعية فى الإسلام » ، فإذا به يعثر على الطريق إلى الله ، ويخرج من حيرة الإلحاد إلى طمأنينة الإيمان ، وتسوقه

الخطبة إلى مهاجمة الجامعة ، فى قلب الجامعة ، ويصف أساتذتها بقوله : « جهل يحمل الدكتوراه » . عند تلك القولة (الهفوة) شعرت أنه قد صار بينى وبينه بون شاسع .

جاءت شقيقته الصغرى بالشاى ، وضعته بيننا ، وقلت لسيد :

– مارأيك فى الاشتراكية ؟

فقال لى :

– لاهدف لها سوى العدالة ، والإسلام عندى اشتراكى النزعة .

قلت له :

– وددت لوأ عـرف منك . لم انضـممت إلى الإخـوان وصـرت لـهم خطيبا، وداعية .

فقال لى :

– فى الناس وحوش . ولايوقِف وحشيتهم بالوجدان سوى الدين ، ولايجرّئُ الضعفاء عليهم سوى الدين .

فهمت فى تلك اللحظة نزعة المصلح الاجتماعى المثالى عند سيد قطب ، وسر اختياره لهذا الطريق . رويت له كيف أننى كنت عضوا مغمورا بالإخوان قبل سنين ، وكيف بكيت يوم مات مرشدهم حسن البنا ، وكيف تركت الإخوان ، حين جلست على رصيف محطة للسكة الحديد ، أقرأ فى كتاب « علم النفس التكاملى » ليوسف مراد ، فى ظل شجرة رطيب ، فى عز الظهيرة ، وجاء قائد من قادة الإخوان ، وجذب الكتاب من يدى ، وإذ قرأ عنوانه ، طوّح به ، ودوت يده بصفعة على خدى وأذنى ، وقال لى :

– أتقرأ هذه الكتب ، وتترك كتاب الله ؟

ابتسم سيد بحنوّ ، وقال :

– ولذلك تركت الإخوان ؟

قلت :

– أجل ، هذا التطرف ، والكراهية لعلوم الدنيا ، لاأطيقهما من أحد .

فقال لى :

– إنهم شبابٌ ينقصهم الكثير من المعرفة بأمور الدين ، وروح الدين ، وغاية الدين .

ولم يفلح يومها سيد فى إعادتى إلى « الحظيرة » ، ولم أتوقع منه هو أن يكون فى يوم ما ، داعية لهذا التطرف العنيف ، فى كتابه الرهيب : « معالم على الطريق » ، وكأنه كان يشعر أنه سيودّع الدنيا ، شهيدا ، بعد حين ، ويستعجل الشهادة ،كثيرا ما كان يخالجنى الشك فى صلته بالعقاد، فأسلوب سيد فيه لمسات الاحتذاء للعقاد .

روى لى سيد ذكرى مريرة ، بدا لى وهو يرويها كأنها لم تعد تحزنه ، أوتعنيه فى شئ ، قال لى وهو يبتسم :

– كنت له تلميذا محباً ، وكنت أقدم له كتبى ، فيثنى على ، ويقربنى منه ،حتى طلبت منه ذات يوم أن يكتب مقدمة لكتاب لى ، يقدمنى به للناس ، فأبى ذلك على نفسه وعلى ، وشعرت بالغيظ ، حين آثر أن يقدم لكتاب « بروتوكلات حكماء صهيون » لخليفة التونسى ، ولايقدم لكتابى . فجفوته وجفانى ، وهجرت مجلسه .

سألته سيد قطب :

– أى كتاب كان ؟

فقال لى :

– ليس ذلك مهما الآن .

وآثر سيد الصمت فى هذا الموضوع ، ولم ألح عليه ، لكننى فكرت أنه ولابد كان واحدا من كتابين : « التصوير الفنى » ، أو « مشاهد القيامة »، وهما موضوعان يجدر أن يكتب فيهما العقاد . أيكون السبب هو غيرة الأستاذ من تلميذه الموهوب ؟ أم يكون سبب الرفض والجفوة حدة القلم، وتمرد الروح فى كتابات سيد قطب ؟

شُقّت صفوف الإخوان بعد ضرب الأحزاب ، وإلغاء الدستور ، وحل البرلمان بإثارة اتجاهين داخل صفوف الإخوان ، أحدهما ضد الآخر ، اتجاه الدعاة من خريجى الأزهر ، واتجاه الدعاة من خريجى الجامعات الحديثة ،وكان سيد قطب علم الأعلام فى هذا الاتجاه الأخير .

وصدر كتاب « معالم على الطريق » لسيد قطب ، وقد حلت جماعة الإخوان ،وجرت المحاولة لاغتيال عبد الناصر ، حقيقة كانت هذه المحاولة أوتمثيلا ، وألقت الثورة القبض على مفكرى جماعة الإخوان ، وفى طليعتهم سيد قطب ، وعبد القادر عودة ، ودام سجنهما سنين عددا ، حتى شنقا ، وودعا الدنيا شهيدين ، لم تشفع لهما ، كمفكرين شهيرين ، برقيات الدنيا ، ولا شفاعات حكام الدول الإسلامية أجمعين .

مازلت أذكر يوما ، جلست فيه مع الناس ، بمقهى ، ونحن ننصت إلى محاكمة الثورة (فى محكمة الشعب) لقيادات الإخوان . وإذ جاء الدور

على سيد قطب ، فوجئت به ، عبر الأثير ، يتكلم ، هو النحيل البدن ، ذوالرئة الواحدة ، بقوة ، لاحساب معها لخوف من ضرب أوتعذيب ، قبل المحاكمة ، أوبعد المحاكمة ، يتحدث بصفاء مدهش ، إلى قاضيه ، وقد كان واحدا من صفوة من الثوار يجتمعون عنده فى بيته ، فى الليالى الحارة ، والليالى الباردة ، يتحاورون ، فى أمور التمهيد للثورة ، والإعداد لها ، ولقد أرانى سيد يوم زرته أول مرة ، صورة لهما ، كانا يجلسان معا ، ويأكلان معا (القاضى والمتهم) دون أن يدور لهما بخاطر ، أن أحدهما سيكون ضحية بكلمة ينطق به صاحبه .

ومازلت أذكر يوم قابلت شقيقه « محمد» ، وكنت قد أصدرت أول مجموعة قصصية لى ، وأهديتها لسيد فى سجنه ، فأخذها إليه ، فأخذها منه « سيد » وقد أعاد إلى سيد قطب الغلاف الداخلى الذى خططت بيدى الإهداء إليه ، وحمل محمد الورقة إلى ، قائلا لى :

– سيد يقول لك : إنه لاينبغى أن ينالك أذى بسببى ، فمزق هذه الورقة بيدك أنت .

أشفق سيد أن يمزق هو الورقة بيده ولا أعلم ، فأقع ذات لحظة أسير الهواجس والمخاوف والظنون ، وأظل أترقب ، وقد كان ذلك يمكن أن يحدث لى ، إثر إعلان الحكم عليه بالموت شنقاً .

العبقرى المقهور



تليجرام

غواص في بحر الكتب

بين عام وآخر ، تتذكر « القاهرة » ،واحدا من عباقرتها « المقهورين »، كلما جاءت ذكرى رحيله ، وهى فى قلبى وقلوب محبيه ، كأنها ذكراه الأولى ، أو كأنها يوم وداعنا نحن الذين أحببناه كاتبا ناقدا ، ينفذ بقلمه إلى الجوهر ، دون غرق فى التفاصيل ، ودون لجوء إلى البطاقات ، والمونتاج ، والقص واللزق ، فى دراساته وأبحاثه ، ومقالاته وأحاديثه ، ومحاضراته وندواته ، فقد ملأ بحضوره الفكرى ، والحياتى ، عقول وقلوب من عاصروه .

فى ذكراه تنشر ، أحيانا ، باقة من المقالات فى مجلة أدبية ، أوتعقد ندوة فى ناد للفنانين عن كاتبنا العبقرى « الدكتور محمد مندور » .

وفى ذكراه أذكره أنا بهذه المواقف .

حوار

مررت إذ كنت بمبنى إذاعة القاهرة (فى أواخر الخمسينيات) حين كانت ماتزال بمبناها العتيق بشارع الشريفين ، على استوديو (١٢) ، لزيارة صديق . وجدته بالاستديو يقدم نشرة الظهيرة . وكانت أمام الاستديو طرقة كالركن ، وابتهج قلبى حين رأيت الدكتور محمد مندور جالسا ، يلف لنفسه سيجارة ، ويلصق ورقها بطرف لسانه ، كنت أعرفه

من صوره . وكان عطاؤه القلمي صديقا حميما لعقلي وقلبي ، حييت ، وجلست . ودهشت إذ رأيت معه الراقصة الشهيرة « س » في فستان باهر يليق بها ، وكانت مزهوة بنفسها : الحركة ، والنظرة ، والالتفاتة . وكان مندور في بدلته البيضاء ، يبدو على جرمه ، ضائعا في اتساعها .

أشعل مندور سيجارته اللف ، وقال لها ، للمرأة التي يحدثها :

– رأيت رقصك يابنت يا ...

ضحكت س . قالت :

– أعجبك .

مطّ مندور شفتيه وقال لها :

– لا بأس .

فقالت « س » بزهو :

– لو رأيتني ببدلة الرقص الحقيقية ، وليس في هذه البدلة الحشمة ، التي فرضها علينا يحيى حقي ، ومصلحة الفنون ، لقلت كلمة أفضل من ذلك .

ابتسم مندور بسخرية :

– البركة في نوادي آخر الليل !!

وتضاحكت « س » ، وسكتت مغاضبة ، فالرجل الكهل « قفل » ، ورمقها مندور وقال :

– بنت يا ... كم تكسبين في الشهر ؟

ضحكت ، وقالت مغيظة :

– لم تسأل يادكتور ؟

فأجابها وهو يتنهد :

– فضول سخيف . لا تجيبى .

تضاحكت «س» . وضعت ساقا على ساق ، وقالت :

– احسب لى يادكتور مندور ، آخذ فى النصف ساعة مائة وخمسين جنيها ، وأرقص فى الليلة أربعة أنصاف ساعة فى كل ليلة ، حتى فى ليالى الجمع . كم تظننى أكسب فى الشهر ، هذا طبعا ، عدا الأفلام ، والأفراح ، والليالى الملاح .

وفرقع ضحكها فى الركن الضيق ، الوثير المقاعد ، والأريكة .

وصمت مندور ، وراح يعد كطفل على أصابعه ، ويحرك كفيه بالزائد والناقص ثم قال :

– حسبة تحيرّ يا ... أظن دخلك فى الشهر عشرين ألفا .

صاحت المرأة بظفر :

– بل ثلاثين ألفا يادكتور ، بلا مبالغة ، فى المتوسّط يعنى .

وبدا مندور لى مبهوتا ، وقد لاذ بالصمت ، وأشعل سيجاره لفّ أخرى وأطرق . كنت أعلم أن مندور ، قد أُبعِد من الجامعة بفضل جهود زميله « ر . ر » كرجل غير مرغوب فيه ، فى عمل يتصل فيه بالشباب ، ولأنه لم ينتهز الفرصة ، ويتقرب ، ويتودّد ، بفكره ، وقلمه ،واتصاله ، بأولى الشأن الجدد فى هذا البلد ، وكنت أعلم أنه عولج من انفصال شبكى فى عينيه الاثنتين ، خارج البلاد ، بسبب قطعه لسنوات عمره كلها فى القراءة

والكتـابة . وإذ رفع مندور رأسـه ، قـال لهـا . لـ « س » فى غـضب أبوى حزين ، ورفيق ، وضاحك :

– وأنا ضـيعت عمـرى مع الورق والقلم يا ... ، وبوسـعى الجلوس على صفٍّ من كتبى يا ...

ووجـمت « س » ، وارتجـفت شـفـتـاها ، ولم تجـد مـا تقـوله فـأطرقت صامتة .

والتفت لى مندور ، وقال :

– وانت يابنى . لم جئت هنا الآن ؟

قلت ، والقلب من اللحظه مثقل :

– أرتزق .

ضحك مندور عندئذ .وقال :

– مثلى !!

ثم قال :

– حدثنى عن نفسك يا .. ماسمك ؟

البحث عن عمل

مبنى الاستعلامات مايزال قائما ، ولنفس غاياته بشارع طلـعت حرب (سليمان باشا سابقا) . وكنت أصعد سلالمه التى لاتنتهى ، فالمصعد لم يكن مباحا لغير الموظفين ، إلى الدور (كذا) ، لأقدم طلبا للعمل بمصلحة الاستعلامات ، أو بهيئتها ، لا أذكر ، كنت قد تخرجت فى الكلية ، وكان ترتيـبى يسـمح لى بالتـعـيين ، لولا عـدم وجـود بند بوظائف التـدريس

بالتربية والتعليم ، فرحت أطرق أبواب مبانى أجهزة الثقافة والإعلام الجديدة فى البلاد .

وفوجئت بمن يضع يدا رفيقة على كتفى ، ويسألنى : إلى أين ياأبو داود ، رأيت الدكتور أمامى غارقا لم يزل فى بدلته البيضاء (الشاركسكين) ، وتوقفنا على الدرج ، وأخبرته بما جئت لأجله ، فقال لى :

– تعال معى . سأقدمك إلى رئيس الاستعلامات « ع . ش » ، وأوصيه بك .

وعاد الرجل يصعد معى سلالم لاتنتهى ، كان قد فرغ من نزولها لتوه ، ودخل معى مكتب « ع » ، وهو يلهث ، ولم ينظر إلينا « ع » . أحس بنا من ظل ألقاه المصباح وراءنا على مكتبه ، فقال : « نعم » . فأخذ منى « مندور » الطلب ، وألقى عليه نظرة ، وقدمه لـ « ع » . وقال :

– هذا الولد يعمل معك ، وأنا أوصيك به ، فهو أهل للعمل فى الثقافة .

رفع « ع » رأسه ، بدا ممتعض الوجه ، فى وجهه قرف الدنيا ، والأوراق المطروحة بلانظام على مكتبه الواسع ، وقال بضيق :

– أمن أجل هذا عدت ؟

فقال « مندور » بهدوء :

– نعم . وصعدت سلالم . فهو عزيز على .

فقال « ع » بنفس الضيق ، وقد سقطت « شوافته » إلى أرنبة أنفه :

– طيب . دعه لى .

وعاد « ع » ينكب على الأوراق . وسحبنى « مندور » جانبا ، وهمس لى :

– اجلس ، ولا تغادر المكتب ، حتى يبت فى طلبك ، سأنتظرك بمقهى « لابأس » .

وانصرف « مندور » عنى ، وظللت واقفا حتى مللت ، فجلست . وحين رفع « ع » رأسه عن الورق ، ورآنى قال :

– أما تزال هنا ؟ اذ هب ، وسوف نخبرك إن كنا نريدك .

وقفت ، وعرفت نتيجة طلبى فى تلك اللحظة ، وأسرعت إلى مقهى «لابأس » .

وجلست صامتا . فتضاحك مندور وقال لى :

– قال لك : سوف نخبرك إن كنا نريدك .

فهززت رأسى ، وهمست : « لا عليك يادكتور » . فقال لى ضاحكا :

– لاتياس ياأباد داود . مازال باقيا لنا أن نكتب بالقطعة !!

حفل تكريم

كنت قد التحقت بعمل فى « مطبخ » مجلة مصورة ، مهمتى فيه المراجعة الفنية صحفيا ولغويا ، لما يُنشر بالمجلة . وكان « مندور » آنذاك من كتابها الدائمين ، بالقطعه أيضا .وحدث أن سكرتير تحرير المجلة « س» قرر أن يترك المجلة . ليعمل نائبا لرئيس تحرير صحيفة يومية . ودعينا ، نحن الذين نعمل بها ، كتابا بالقطعة ، ومحررين دائمين ، إلى حفل تكريم ، تقيمه المجلة بالنادى الذى تصدر باسمه المجلة ، لسكرتير

التحرير « س » . وفوجئنا بمائدة حافلة بطول القاعة ، وعلى رأسها رئيس التحرير « ص» الذى لم نكن نراه إلا نادرا ، فقد كان آنذاك شخصية بالغة الخطر والخطورة فى البلاد .

واثر انتهاء وليمة الشاى والجاتوهات ، جلسنا فى الليلة الباردة ، بقاعة دافئة ، ودارت أحاديث متقطعة ، لاقيمة لها حتى يذكرها أحد . وكان الدكتور « مندور » جالسا معنا ، يمارس هوايته المعتاده : لفّ سيجاره من تبغ بعلبة صفيح بنية اللون . وكان صامتا ، مطرقا ، ومن جهه أدركت أنه قد عزم على أمر ، ولمحه رئيس التحرير « ص » ، فقال له متضاحكا بغموض :

– لم نسمع صوتك يادكتور مندور .

فقال مندور بجسارة صادقة ومبهرة :

– وهل تركتم لى صوتا يا أستاذ .. ؟

بهت « ص » ، وقال :

– لم يادكتور مندور ؟ مازلت تكتب ، وتمشى ، وتعود إلى بيتك ، وتروح وتجئ . وها أنت معنا من كتاب المجلة .

فقال مندور :

– اسمع لى ياأستاذ ... بسؤالين : أولا : لم فصلت من الجامعة ياأستاذ؟ فقال « ص » متضاحكا :

– دعك من هذا السؤال الآن فهذه مسألة عليا .

فعاد مندور يقول :

– ولم أصدرتم التعليمات للعاملين بالإذاعة ، حتى لايطلب منى حديث، أو أُدعى إلى ندوة ؟

فقال « ص » بثقة وتأكيد :

– لم يحدث ذلك يادكتور مندور . ليست هناك تعليمات بمنع أحد ، لا أنت ولاغيرك .

وتضاحك ، ثم قال :

– ربما كانت هذه المواقف من تصرفات العاملين بالإذاعة الصغار ، من مقدمى البرامج يعبرون عن رأيهم فيك ، كجيل جديد .

فهز « مندور » راسه نفيا ، وقال :

– لاياأستاذ ... كلهم من تلاميذى ، وقد قرأوا لى ، ويتعاطفون معى ، ويعرفون أن ورائى : « حياتى » ، وسجائرى اللفّ هذه ، والأقلام التى أحتاجها ، والكتب التى اشتريها ، والورق الذى لابد منه .. و « كوم » عيال ياأستاذ ...

وكان الصمت قد صار له رنين ، ولم يدم الصمت طويلا فقد قطعه « مندور » بقوله :

– هناك أوراق يرفعها مقدمو البرامج بأسماء المتعاملين إلى فوق ، وتعود الأوراق إليهم من فوق ، وعليها إشارة « × » ، أمام بعض الأسماء بالقلم الرصاص ياأستاذ ...

وعاد الصمت ذو الرنين ، وبدا « ص » جامد الوجه ، ومُحرَجا بين الحضور ، ثم قال مندور :

– وأحيانا ياأستاذ ... تكفى مكالمة تليفونية من فوق ... فلان : لا .. ويشيع الخبر فى المبنى كله ، بل فى المدينة بأسرها ياأستاذ ... لقد عرفت هذه المعلومات من الشارع ياأستاذ ..

أخذ « ص » يتضاحك ، وقال :

– إذن ســأحدثك بصراحة يادكتور مندور . أفكارك يادكتور لاتتفق معنا .. !!

عندئذ ضحك مندور وقال :

– وأنتم ياأستاذ ... ألم تتأثروا بهذه الأفكار ، وتستفيدوا منها فى عملكم على نطاق واسع ، ومع ذلك فأنا فيما أقوله وأكتبه حريص على عدم الصدام المباشر ، فكريا ، حرصى على « كوم » العيال . أذكر لى قولا واحدا بالإذاعة حذف من التسجيل ، أو سطراً بمقال حذفه الرقيب ؟

وعاد الصمت ذو الرنين ، حتى قال رئيس التحرير « ص » :

– مُرّ على غدا بمكتبى يادكتور مندور ، وسأسوى هذا الأمر .

ونهض رئيس التحرير مغادرا المكان ، وهو يشير بيده ، بتحية عامة ، وأخذ الكل فى الانصراف ، وبقيت جالسا مع الدكتور مندور ، بقى معنا سكرتيرالتحرير « س » الذى قال :

– هذا الرجل عضو لجنة الإشراف بأعلى مؤسسة بالبلاد ، أحد أعضاء خمسة ، ولا يعرف كيف يكتب حرفا يادكتور ، أنا نفسى كتبت باسمه عشرات المقالات السياسية ، بل المئات . فلا تحزن يادكتور .

وانصرف « س » . وانصرف « مندور » ، وبقيت جالسا مبهوتا ، وإذ غادرت القاعة الدافئة ، للحديقة الباردة ، رأيت « مندور » يسير وحيدا ،

تائها فى بدلته البيضاء بين مصابيح الأشجار . سرت بجواره ، ولمحته يمسح دموعا لاصوت لها .

قال لى :

– اسمع ياولد فى أول فرصة تتاح لك ، ابتعد عن الصحافة وأهلها . لا تَضَعَ وقتك وقلمك فى « خيّة » . كن كاتبا صعلوكا ، أوفى عمل وظيفى لا يعرف رفاقك فيه أنك هذا الكاتب .

وعاد مندور إلى الكتابة بالقطعة للإذاعة ، والعجيب أنه لم يدع للكتابة فى المجلة ، منذ أن جاءها سكرتير جديد للتحرير .

اللقاء الأخير

قابلته ، الدكتور مندور ، صدفة ، يسير على رصيف بشارع قصر العينى ، توقفت مسلمًا سألنى :

– ماذا تعمل الآن ؟

قلت :

– أكتب قصصا ، وأغلقت المجلة ، بسبب صراعات « أهلها » وأخذنى « س » معه بالصحيفة التى يعمل بها نائبا لرئيس التحرير ، ومازلت أبحث عن طريق آخر أعمل فيه بنصيحتك !!

فقال لى :

– وكيف حال الصحيفة الآن ؟

فقلت :

– العجيب أنها صارت توزع مائة وعشرين ألفا ، بعد أن كان توزيعها

سبعة عشر ألفا فقط . وكله ، بسبب « كوبون اليانصيب » الذى تنشره فى صفحتها الأولى ، والقراء الغلابة الذين يحلمون بالثراء .

فضحك مندور .. وقال بمرارة :

– وماذا فى ذلك .. « الكلأ » يُوزّع أكثر !!

ولم ألتق بأستاذى وصديقى « مندور » بعدها . لكن مشهد ابتسامته المرورة ، مازال ماثلاً أمام عينى !!

فارس العصر

وجه « أ . ن »

كنا صحبة « ريفيون حالمون » قراء أدب كسوس الخشب . مشاريع كتّاب نبحث عن حظوظنا فى العاصمة ، والجامعات ، كلنا كنا ندرس العلوم النظرية والإنسانية نشترى الكتب بقروشنا القليلة لنقرأها ، ونجد أكثر ما نقرأ فى مكتبات الأحياء العامة ، والكليات . ونتردد على مقاهى الأدب وندواته :

إيزافيتش ، وريش ، والعجمى ، وعبد الله . فى كل مقهى كانت صحبة ومجموعة ، شلة اوجماعة ادبية ، لايجمع بين أفرادها سوى المعرفة والصداقة والصحبة .

صحبنى الصديق ، القصصى الشاب آنذاك ، « أ . أ » . إلى صديقه الناقد اللامع « أ . م » . إذ كنا انا ، و « أ . أ » طلابا بالمنصورة ، تصادقنا ، وجئنا معا إلى القاهرة . وكان « أ . أ » يكتب قصصا تنشر بآخر صفحة أوصفحتين بمجلة « ر » الثقافية الأدبية الأسبوعية ، وكان : « أ . م » نجم الحركة النقدية بالمجلة . صاحب أسلوب أدبى فريد ، ونظرة نقدية خاصة، لما يعرضه من أعمال الأدب التى تنشر آنذاك ،وفيما يخوضه من معارك ادبية ساخنة . كان « أأ » فارس المجلة « ر » والحركة الأدبية على اتساعها

فى أواخر الأربعينيات ، وأوائل الخمسينيات . وكان « أ . أ » قد حرص على لقائه والتعرف به ، وتوطدت بينهما صداقة الأستاذ بالتلميذ ، وقدمنى « أ . أ » إليه ، بمقهى عبد الله بالجيزة .

كنا نجلس على هامش المجلس على رصيف المقهى بميدان الجيزة ، فى الصيف ، وبداخله فى الشتاء ، وكان مجلسا يوميا . نسمع ، ونرى ، ونحتفظ بآرائنا فى داخلنا فيما نسمع . فى ندوه « أ . م » الأسبوعية هذه،وكانت مجلة « ر » قد احتجبت . رأينا شعراء كبارا وأساتذة جامعيين، وتعرفنا إلى شباب مثلنا ، ريفيين حالمين ، مشاريع كُتّاب ، ونمت بيننا الصحبة : « ر » و« و» . و « ص » ، و« ع» ، و« غ » ، وكثيرون غيرهم، بعضهم شق طريقا ، وبعضهم توارى عن الدنيا ، أو تخلى عن حلمه .

بدا لى الكاتب « أ . م » مثلما تخيلته فى تعقيباته النقدية ، فارسا حقيقيا فى حديثه ، ومرحه ، واعتزازه بنفسه ، وتعاليه على آلامه الخاصة، لا أعرفها ، ولا أظن أنه باح بها كثيرا إلا لقلة قليلة ، لم أنفذ قط إلى قلبه عدة سنين ، مثل صديقى : « أ . أ » ، و« ر . ن » .

وكنت أعلم أن بين كل منهما ، و « أ . م » مودة القلب ،والسر ، والنجوى . لكن « أ . م » كان قادرا أبدا على أن يوزع حبه ، وحفاوته على الجميع فى مجلسه ، فلا يشعر أحد من ناشئى الكتاب خاصة بغبن ما . وأحيانا كنا نجد « أ . م » يلعب الشطرنج ، أو النرد ، فنجلس نتفرج . كانت له ضحكة حلوة ، ما أرقها ، وأعذبها ، وأقربها إلى النفوس ، وهو صامت وهو يدخن ، وهو يتسلى باللعب .

وكان من عادته أن يحيى أى وافد جديد من ناشئة الأدب ، بشاى ،

أوقهوة ، مرة واحدة ، بعدها يشرب الوافد على حسابه ، فقد أصبح تلقائياً عضواً فى الندوة ، من حقه أن يتكلم إذا شاء ، ويصمت إذا شاء ، وينكت إذا أحب ، النبل كان يشع من وجهه ، وروحه ، وابتسامته الندية أبدا. وكان بوسع أى أحد أن يقرا له شعرا ، أويعطيه قصة يقرأها فى بيته، ودائما كان « أ . م » يقول رايه فيما قرأه ، لصاحب الشعر او القصة منفردا ، خاصة حين تكون له ملاحظات غير طيبة عما سمعه من شعر ، أوقرأه من قصة . وكنا جميعا نجل قوله ، مثلما نجله . ونعتبر رأيه فيما كتبناه درسا ، ينبغى أن نفكر فيه ، قبلنا رايه أورفضناه .

كان يحدثنا أحيانا عن صديقه الشاعر الراحل : « ع . م . ط » ، عن فروسيته ونبله وحبه لترف الروح ، والجسد والطعام والبيت ، الذى لم نره نحن ، العامر بالتحف والتماثيل ، وكنا نشعر من حديثه عنه ، أنه قد فقد بفقده ، نصف روحه ، ونصف حياته .

قرأ لى قصتين ، لم يرض عنهما ، فأعادهما لى ، وقال :

– استمر . ما كتبته محاولة .

ولزم الصمت . وشعرت بالحرج . فلم يقل أى تعليق آخر .

الصمت

نشر صديقى « أ . أ » مجموعته القصصية الأولى ،وتصدرت قصص مجموعته مقدمة ضافية . مليئة بالتحليل والرضى ، كتبها : « أ . م » ، عن قصص « أ . أ » . وكنت قد بدأت أنشر قصصا فى مجلة « أ » البيروتية ، وأذيعها هى نفسها فى البرنامج الثانى بإذاعة القاهرة ، اخترت من بينها ثمانى قصص لنشرها فى كتاب ، وقدمتها إلى : « أ . م » ليقرأها ويقدم

لهـا ، إن رضـى عنهـا ، وشـاء ذلـك . هكذا اقلت له ، أخـذ ملف الـقـصص وحملها معه إلى بيته . سألته بعد شهر ، بعد شهرين ، وكان يقول لى :

– لم اقراها بعد .

ويلوذ بصمت عميق . لم اشفق على نفسى من الحرج ، بقـدر إشفاقى على حرجه معى ، حـدثتنى نفسى انه غيـر راض عمـا صنعت . ولمته فى نفسى لأنه لايقـول ذلك ، ودون أى حـاجة منى إلى اعـتذار منه فأنا أحبـه ، بقدر ثقتى بما كتبته .

كانت قد حدثت جفوة بسبب سوءتفاهم ، بينى وبين الصديق « ر . ن » وقيل لى إنه قد شكانى إلى « أ . م » ، وإنه لذلك يلزم الصمت ، وكأنه قد عـزف عن التـقـديم لقـصـصك . تـركت هذا الأمـر فى نفـسى مـفـتـوحـا لاحتمالات المصـارحة يوما ، وكـانت فى النفس مرارة ، يطويهـا فى القلب ذلك الحب للصديقين . وسافرت للعمل بالسعودية .

عـدت بـعـد أشـهـر تسـعـة . سـألت « أ . م » عن المجـمـوعـة . طلبـتـهـا لأنشـرهـا فـأعـادهـا إلى ، ولم أعـاتبه . ولـم يعتب على فى أمـر ، لكننى كنت أرى فى عينيه حزنا لا أعـرف سببه . قلت لنفسى : هذا الرجل لايكتب إلا إذا أحب الكتـابة والكاتب مـعـا ، وكـان على أن أتعلم من نـبله ، وصـمـتـه ، وترفـعه درسـا . فطبعت من مـجـمـوعتى الأولى ، على قـدر مـالى ، ألف نسخة ، وأهديت أول نسـخة إليه ، قال لى :

– مبروك .

ولزم الصـمت ، وحـيـانى بقـهـوة بعـد غـيـبـة . غـادرت القـاهرة إلى السعودية بعد يومين ، عائدا إلى عملى ، مدرسا بالطائف هذه المرة .

بداية النهاية

إذ عدت إلى القاهرة ، دهشت للحفاوه التى استقبلت بها مجموعتى القصصية الأولى من الأدباء الشبان ، والنقاد الشبان خاصة . كتبوا عنها خمسة عشر مقالا .

ولم التق بالصديق « أ . م » ، فقد كان على الرحيل إلى مركز البدارى ، الذى عينت به مدرسا بمدرسته الإعدادية الثانوية . وحزنت أشد الحزن ، إذ علمت أن صديقنا « أ . م » قد نقل من عمله ، كعضو بالإدارة الثقافية العليا بوزارة التربية والتعليم . كان رئيس الإدارة عندئذ هو « س . ح » . وكان يعمل بها الناقد « س . ق » ، والقصاص « ع . ج . س » فيما أذكر . وقيل لى إن كليهما : « أ . م » ، و « س . ح » ، لم يهضم الآخر ، وأن الخلاف قد كبر بينهما وغذى ، فنقل « س . ح » صديقنا الفارس مدرسا بمدرسة ثانوية بحدائق القبة ، وصار الحزن عميقا فى القلب حين عدت فى زورة إلى القاهرة ، وكنت قد نقلت إلى الإسكندرية ، وجلست مع « أ . م » فى ندوته اليومية . كانت ضحكته العذبة قد صارت ممروره ، وحزينة ، وبدا لى أنه كعادته ، يترفع ، ويتصالب ، حدثنا فيما حدث ، قال :

– هل تتصورون أن ناظر المدرسة خصص لى يوما للإشراف على حوش المدرسة ، مهمتى فيه أن أحمل عصا ، وأمنع التلاميذ من التزويغ ، ونط السور ؟ لم أكترث بشئ مما قاله ، وتركت التلاميذ يفعلون ما يشاءون ، فغضب ، وأظن أنه سيتخذ إجراء ما .

ساد بيننا الصمت فى المجلس ، وبدا هو كأنه لا يبالى بهذا الأمر ، عاد إلى الحديث ، والنقاش . وكأنه قد لام نفسه على بوحه وشكواه . وجاء

صديق شاب ، كان بلاعمل ، فقال له « أ . م » : إنه قد حدث صديقه رئيس التحرير « فلان » . فوافق على عمله بمجلته . وطلب منه الذهاب إليها . وعاد يؤكد له انه سيذهب معه إليه غدا .

وحدثت الواقعة . قدم « أ . م » استقالته من عمله كمدرس ، وبقى بلاعمل . ينام ويقرأ نهاره ، ويسهر ليله بندوته مع الكتاب والأدباء ، من كل الأجيال . عجبت لأمر صاحبنا « أ . م » ، يقدم خدماته ، ويستثمر علاقاته لغيره ، ويأبى أن يطلب ذلك لنفسه ، وربما لأننا كنا نهابه ، ونعرف ترفعه ، فيما يخصه ، لم نحدثه فى هذا الأمر .

المأساة

علمت وأنا بالإسكندرية أن صديقنا الفارس قد صار نائبا لرئيس تحرير مجلة « م » ، التى يرأس تحريرها « ى . ح » ، مع « ف . د » ، وبأجر مضحك هو خمسة وعشرون جنيها . زرته فى المجلة ، فرحب بى ضاحك الثغر ، وقدمنى إلى « س . ح » . وعدت إلى الإسكندرية .

فوجئت ، ذات صباح ، بمقال كتبه « غ . ش » بصحيفة « أ » ، يروى فيها مأساة صديقنا الفارس « أ . م » . انسلخ من الوسط كله بالقاهرة . ومن المدينة بأسرها . وحمل « غ . ش » الحياة الثقافية ووزارة الثقافة المسؤولية وطالب له بكذا وكذا .

عدت إلى القاهرة مفزعا . علمت أن صديقنا « أ . م » قد غطس فى الإسكندرية عند أقارب له ، وأنه شوهد يسير شاردا ، ساهما فى الليالى الباردة بالبيجاما والشبشب .

أخذت العنوان . وذهبت أبحث عن الحى ، وعن البيت ، نهارا ، فلم

اجده، قيل لى إنه خرج ، ولا يعرف أحد متى يعود . تركت له خطابا حارا مخضبا بالدموع ، اطلب لقاءه ، وأدعوه للإقامة فى بيتى إلى أن يهدأ نفسا .

وعاد « ا . م » إلى القاهرة ، ولم القه بالإسكندرية ، بعد أيام لا أذكر عددها . لكننى على يقين أن حب الصحبة له هو الذى أعاده .

عاد يجلس على المقهى ، وجئت للقائه ، وجدته فى اطيب حال ، يؤكد أنه سوف يعود للكتابة ، وأنه سيكتب عن ، وعن . ويقهر ضغط الدم الذى يعانى منه بالقلم وحده ، وسعدنا به ، ورجونا ، وتساءلت فى نفسى : هل سيستطيع ، هو الفارس ، أن يعيش من قلمه ، وهو يأبى فى روحه المجاملة ، ووضع أى حسابات فى اعتباره ؟ !

العشاء الأخير

سهرنا معه بالمقهى ذات ليلة . كان يتحدث ويضحك ، ويعد بالمنى نفسه ، ويعدنا بها معه . وأخذ يلعب « الطاولة » مع صديقه الناقد « ع . ق» . وغادرناه ، ثم ذهب هو إلى مطعم كازينو بالهرم ، فيما أذكر ، مع صديقه الأثير « ع . ق » ، ليسهرا ، ويتعشيا معا .

فى اليوم التالى ، حمل إلينا نعيه ، بهت ، ولم ابك . حتى اليوم لم أبكه قط . لكنه ظل حيا فى القلب .

علمنا أنه أكل سمكا ، ورفه عن نفسه فى مجلسه مع صاحبه ، وعاد إلى بيته ، قيل لنا أنه وجد نفسه مرهقا ، وأنه قد وضع راسه فى حجر أمه ليغفو ، وربما تقلبت عليه مواجع النفس مع مواجع الجسد . كان يعيش طول حياته أعزب ، وحيدا فى بيت صغير بالدقى ، ولفظ نفسه الأخير بين

يدى أمه . قيل لنا إن أمه ، بحثت ليلا عمن تتصل به ، أوتخبره ، بما حدث لفارسها . فلم تجد سوى بطاقة عليها اسم « ن . ع » ، ورقم تليفونه ، فحدثته فى قلب الليل ، تخبره ، وتدعوه .. لنجد تها .

فارس الدائرة المشئومة

فى سنوات الثلاثينيات ، كان التكوين الثقافى ، وكانت بواكير الإنتاج القصصى لموجة جديدة من كتاب القصة المصرية القصيرة والطويلة ، موجة أكثر عروبة ، أو أكثر مصرية ، وأصالة من الموجة السابقة فى حقل القصة ، بعد أن عبدت لها بواكير الرواد الطريق فى العقدين السابقين : المازنى ، وهيكل ، وجورجى زيدان ، وعيسى عبيد ، وطاهر لاشين ، وجمعة ، وغيرهم . وكانت حركة أبوللو الشعرية فى أوجها ، وجيل الرواد يزداد خصوبة إنتاجا وفكراً فى الإبداع والدراسة .

كانت الحركة الفكرية تناقش اتجاهاتها بين الأصالة والمعاصرة : الاتجاه الإسلامى ، والاتجاه القومى العروبى ، والاتجاه الإقليمى المحلى ، والكل ، من يومها ، فى حيص بيص ، حيال حضارة الغرب المادية الحديثة ، بنظاميها الرأسمالى ، والاشتراكى ، بين نافر ، ومؤيد ، وموفق للرؤوس فى حلالات الفكر . وجازم بالتحريم فى لقاء الشرق والغرب ، والمادة والروح .

وفى هذا الجو الفكرى العاصف ، والزاخر ، والكل يبحث عن فلسفة وهوية ، كان التكوين الثقافى لأعلام الموجة الجديدة من كتاب القصة المصرية القصيرة والطويلة ، وصار أبرزهم فى سنوات الثلاثينيات ،

متوزعا بين الاتجاه فى القص إلى موضوعات التراث التاريخية ، العربية ، والفرعونية ، والإسلامية.

العريان ، وأبو حديد مثلا استغرقتهما موضوعات التراث الإسلامى والعربى . ومعهما كان « باكثير » و « السحار » ، وكان كلاهما عضوا بلجنة النشر للجامعيين ، مع « سيد قطب » ، و«نجيب محفوظ » ، وعادل كامل ، والأخيران شدتهما إليها فى البداية ، موضوعات التراث الفرعونى ، فكتب « نجيب » ثلاثيته الفرعونية ، وبينها : « رادوبيس » و« عبث الأقدار » ، وكتب « عادل كامل» روايته « ملك من شعاع » .

وكان هذان الاثنان أكثر انفلاتا بين أعلام موجتهم ، من حقل التراث عامة ، فسار « عادل كامل » بروايته « مليم الأكبر » فى طريق جديد ، طريق المحلية المصرية العصرية ، ومثله فعل فيما بعد « نجيب محفوظ » حين كتب « خان الخليلى » ، بعيدا عن موضوعات التاريخ والتراث ، والمعالجة القصصية المباشرة لهما .

وكان « عادل كامل » ، أحد الوجوه القليلة التى وعتها ذاكرتى بين أعلام هذه الموجة الجديدة من القصاصين . وعن معرفتى بعادل كامل ، وبفنه القصصى ، انطباعا ، لاتأريخا ولانقدا ، سيكون هذا المقال القصير .

ضباب ورماد

فى أواخر الأربعينيات ، كنا ثلاثة نرتاد المكتبة العامة بحى المختلط بمدينة المنصورة . كانت المكتبة ، فيما مضى ، استراحة لإحدى أميرات القصر الملكى على شاطئ النيل ، وكانت لهذه الاستراحة درجات تصل إلى مجرى النهر ، يرسو عليه قارب للأميرة ، وحلقات حديدية يشد إليها قاربها . وصارت الاستراحة فى العهد الملكى مكتبة للمدينة ، تتبع دار

الكتب المصرية فى باب الخلق بالقاهرة ، واحدة من سبع وعشرين مكتبة تابعة لدار الكتب ، فى مدن مصر الكبرى ، وعواصم مديرياتها .

كان قيمّ المكتبة هو الشيخ أمين ، كان رجلا طيباً يعشق الثقافة ، ويحب روادها المدمنين للقراءة ، وبينهم كنا نحن الثلاثة : عبد الجليل حسن ، وأبو المعاطى أبو النجا ، وأنا . وبلغت علاقتنا بالمكتبة ، وبقيّمها الشيخ أمين ، أننا كنا نتردد عليها فى أوقات عملها ، عدا يوم الجمعة ، فى الصباح، وفى المساء ، وصرنا بين مساعدى الشيخ أمين ، نتجول فى صالات الكتب الداخلية بها ، بين دواليب تحمل ثلاثين ألف كتاب ، فلم يكن نظامها نظام المكتبات المفتوحة ، وننتقى لأنفسنا مانقرؤه ، ونجلب للرواد مايريدونه من كتب ، حين يكون المساعد الوحيد للشيخ أمين غائبا ، وكثيرا ماتغيب ، مطمئنا إلى وجودنا دائما .

وقعت عينى على صف لأعداد مجلة « المقتطف » ، رحت أتجول بين صفحاتها أياما . وقرأت فيها ، بين ماقرأته ، عملين أدبيّين هامين للغاية : أحدهما كان محاورة أدبية ونقدية مترجمة ، حول الإبداع والنقد ، اشترك فيها ثلاثة : كان أحدهم ناقدا أدبيا ، والثانى عالم طبيعة ، والثالث عالم رياضة هو « إينشتين » صاحب نظرية النسبية ، وكنت قد قرأت فيها كتاب نظرية النسبية العامة لمشرفة ، وفهمت ماكتبه مشرفة عنها ، لكن كتابه الآخر عن « النسبية الخاصة » كان مليئا بالمعادلات الرياضية ، فعز علىّ التواصل معه . ودهشت لما قرأته فى المحاورة ، فها هو ذا إينشتين ، وصاحبه عالم الطبيعة ، يفهمان عن الإبداع والنقد ، أكثر مما يفهمه ناقد الأدب .

العمل الهام الآخر كان قصة لعادل كامل ، تحمل عنوان « ضباب

ورماد»، ولم آلف على صفحات أعداد المقتطف نشرها لقصة ، ولقصة مؤلفة ، ولكاتب مصرى ، كانت القصة قصيرة طويلة ، وتستغرق فيما أذكر أكثر من عشرين صفحة ، من صفحات عدد مجلة المقتطف الذى نشرت به . قرأت القصة مبهورا ، مسحورا ، لاهث الأنفاس .

كانت القصة مغامرة روحية ونفسية ، لفيض من المشاعر والأحاسيس ، لاحدث فيها يحكى ، عالما متتابعا من الصور والرؤى ، لاتخلو من دفّق وجودى ، وتحديق إلى الداخل ، كما ينطبع عليه العالم الخارجى ، واللغة فيها لغة جديدة ، وفريدة فى القصّ القصير الطويل ، لاعهد لى بنصاعة مثل نصاعتها ، والصور باهرة التكوين ، والزمن فيها يتداخل بانسياب فى كل زمنى واحد ، والمشاعر حرة طليقة ، كما الطير فى السماوات .

وفيما بعد ، إذ وفدت إلى القاهرة فى الخمسينيات ، واتسعت دوائر قراءاتى للمترجمات ، أدركت صلة هذا اللون من القص بعوالم جويس ، وفرجينيا وولف ، وبروست . وفيما بعد ، فى الخمسينيات تذكرت أن تاريخ نشر هذه القصة بالمقتطف ، كان فى مطالع الثلاثينيات ، وحدثت نفسى أن عادل كامل بهذه القصة ، كان رائدا حقيقيا ، وأنه كان سابقا لزمانه وأوانه ، وحزنت لتوقفه عن القصّ .

ولقد استغرقت القصة المصرية زمنا ، حتى بدت لاتجاهها الفنى إطلالات فى قصص قصّاصى الستينيات ، مجرد إطلالات لاترقى إلى مستوى « ضباب ورماد » لغة ، وبناء ، وصورا ، وعالما طليقا فى الزمن والمشاعر ، وأشك أن واحدا منهم قد قرأ هذه القصة ، القديمة العهد ، التى لم تنشر فى كتاب .

مليم الاكبر

فى القاهرة ، فى سنوات الخمسينيات ، قرأت ، للمرة الأولى ، رواية « مليم الأكبر » لعادل كامل ، كانت سياقا فنيا آخر ، غير سياق « ضباب ورماد » شحنة من الواقعية والعنفوان . حدثت نفسى أن هذا كاتب حقيقى ، له روح ، نيتشوى النزعة فى اختياره لموضوعه ، وفى تجربة روايته ، بل وفى شخوصه ولغته ، وحوارات ناسه فى عالم روايته . كاتب حقيقى له عالم واقعى خاص ، يفيض بروح الدراما ، بين فنانين ضائعين ، فى جيل ضائع ، فى « غرف مقبضة » ، فى حارة شعبية ساكنة، ثابتة العادات ، رتيبة الحركة .

عدت أقرأ مقدمة عادل كامل بين يدى الرواية ، القوة فى المقدمة ، هى نفسها التى وجدتها فى الرواية ، اللغة الطليقة ، والإرادة الحرة المتحدية ، التى تريد خلق العالم من جديد ، وإعادة صياغته ، هى هى التى لناسه فى الرواية .

كان عادل كامل قد كتب هذه الرواية عام ١٩٣٦ ولم يتح له نشرها لأول مرة فى كتاب ، لأسباب لاأعلمها (وقد كان عضوا بلجنة النشر للجامعيين) إلا فى عام ١٩٤٣ ، ولم تنشر فصوله ، فى « الرواية» (الملحق القصصى لمجلة الرسالة الزياتية) التى كان ينشر بها نجيب محفوظ أقاصيصه الأولى ، وكان « عادل كامل » قد تقدم بهذه الرواية لينال جائزة « مجمع فؤاد الأول للغة العربية » (مجمع اللغة العربية الآن)

وأبت اللجنة فى تقريرها أن تمنح هذه الرواية الجائزة ، وقد منحها المجمع لرواية « لقيطة » لمحمد عبد الحليم عبد الله (ربما لم يكن ذلك فى

نفس السنة) .

وعجبت لذوق أعضاء المجمع ، فلقيطة كانت الباكورة الأولى لمؤلفها ، وكانت مليئة بالسجع والمحسنات البديعية الأخرى، وكان عالمها ميلودراميا يستدر العواطف فى استجداء ، وتبدو لغتها ألفاظا وصورا وتراكيب كأنها خارجة لتوها من معطف « المنفلوطى» و« الرافعى » و« الزيات » ، غارقة فى قيود النثر الفنى غرق الشعر القديم فى قيوده ، وثار عادل كامل فى مقدمته ضد المجمع ثورة فنية عارمة .

شعرت بالحزن لعادل كامل : كيف لم يدرك آنذاك أن عليه أن يسبح فى مياه أخرى غير مياه المجمع (آنذاك) ؟ أوكيف تستدرجه جائزته ، أويخدع بمعنى هذه الجائزة لكاتب مثله ؟ . وأيقنت انه أخطأ التقدير لنفسه ، ولروايته ، وقدرت أنه ، ربما لهذا السبب ، وغيره من الأسباب التى لا أعلمها ، توقف عادل كامل عن كتابة القصة ، وكان المثقفون يتحدثون آنذاك عمن توقفوا عن القصّ ، وعن الشعر ، وعن التأليف المسرحى .

وادركت أن عادل كامل ، برواية « مليم الأكبر » وفى التاريخ الذى كتبت فيه عام ١٩٣٦ ، كان سابقا فى ارتياد الإبداع القصصى ، فى تيار الواقعية النقدية ، لنجيب محفوظ صاحب « خان الخليلى » و« بداية ونهاية » .

ففى الوقت الذى كتب فيه عادل كامل قصة « ضباب ورماد » ورواية « مليم الأكبر » ، كان نجيب يكتب أقاصيصه الأولى على صفحات « الرواية»، بين عامى ١٩٣٢ و ١٩٤٣ ، ويجهد للاقتراب من لغة القص ، وبساطة اللغة ، والواقعية ، فى قصص أكثرها يعد من باب المفارقة ، والنكتة ، قصص بالعشرات ، لم يختر منها نجيب سوى عدد محدود ، نشره فى مجموعته الأولى « همس الجنون » . ورفض نشر سائرها فى مجموعات

أخرى .

ملك من شعاع

بين دعاة الإقليمية ، أو المحلية فى الأدب ، فى سنوات الثلاثينيات ، كان عادل كامل ، ونجيب محفوظ ، وليس لأحدهما ، فيما أعرفه ، مقال فى هذا الصدد ، لكن نزوعهما إلى هذا الاتجاه كان واضحا ، فيما أبدعاه من روايات .

نجيب محفوظ كتب ثلاثة أعمال روائية فى التاريخ الفرعونى ، بينهما : « رادوبيس » و«عبث الأقدار » . وعادل كامل كتب روايته التاريخية اليتيمة « ملك من شعاع » عن إخناتون الملك ، موحد الآله فى إلهه واحد ، هو : الشمس » .

ولأن الدعوة للإقليمية ، بمعناها الخاص ، بالتراث الفرعونى ، وبإمكان ربط الواقع العصرى لمصر بحضارة بادت وانقطعت ، فكرا ، ولغة ، باللغة القبطية ، ثم باللغة العربية ، وبالحضارة اليونانية ، ثم الرومانية ، ثم العربية الإسلامية ، فقد أخذت هذه الدعوة الإقليمية معنى جديدا ، عند نجيب محفوظ ، وعادل كامل ، معنى المحلية ، المصرية ، والعصرية ، فكانت « مليم الأكبر » ، وكانت « خان الخليلى » .

وإذ توقف «عادل كامل » بعد « مليم الأكبر » عن القص استمر « نجيب محفوظ » فيه ، فقد أضاف نجيب إلى نزعته المحلية المصرية العصرية ، وفى ثنايا رواياته ، معنى « الإيمان » بصورته الإسلامية ، الصوفية ، التى تمثلت فى بعض شخصياته ، وراح يضفرها ، فى ثلاثيته ، وحرافيشه ، وحاراته ، جنبا إلى جنب مع : زيطه ، والموظفين ،والفتوات ، واليساريين ، والوفديين ، والإخوان ، وأحسب أن عادل كامل لواستمر فى

القص ، لانتهى به الأمر إلى نفس الطريق ، وإن تغيرت الرؤية ، وتغيرت التجارب ، وتغيرت طريقة المعالجة والتعبير .

عالم واحد ، هو عالم « ملك من شعاع » و« رادوبيس » و« عبث الأقدار» لكن رواية « ملك من شعاع » ، تبدولى كرواية ، سامقة روائيا ، قصًا وفنَّ قص ، على فرعونيات نجيب ، ويزداد أساى لفقد القص المصرى ، لصنو ونظير لنجيب محفوظ ، وماقدرت عمق العلاقة بين الإثنين خاصة ، وهما أبناء حقبة واحدة ، ورفيقا عمر ، على كثرة لقاءاتى بنجيب فى مقهى الأوبرا ، حتى أتيحت لى الفرصة للقاء عادل كامل .

الدائرة المشؤومة

عام ١٩٥٩ ، عملت شهورا كصحفى بصحيفة الجمهورية . كان سعد وهبة ، كاتب المسرح ، يعمل بالصحيفة نائبا لرئيس التحرير ،وكان يشرف على تحرير صفحة منوعة مثيرة بالصحيفة ، الصفحة الخامسة بالتحديد . عرضت عليه إدارة حديث صحفى مع « عادل كامل » صاحب « مليم الأكبر » وكان بها شهيرا بين كتاب القصة فى مصر ، ولم أكن قد كتبت سوى أربع قصص أوخمس ، نشرتها بمجلة الآداب ، وأذيعت من البرنامج الثانى بإذاعة القاهرة ، لكن معرفتى بعالم القصاصين فى مصر كان طيبا . وافق سعد على الفكرة ، وكنت أعرف أن عادل كامل قد صار محاميا منذ منتصف الأربعينيات ، وذهبت للقائه .

كان مدخل مكتبه مليئا بشوانين الملفات والبطاقات والموظفين والمحامين . وخرج من باب جانبى رجل ربعة جاوز الأربعين ببضع سنين ، مصرى الوجه ، أسمر . راعنى انحناؤه وهو يصافحنى ، وراعنى هذا المنديل الأبيض الذى يدسّه فى كم يسراه ، مثل لورد انجليزى . وصحبنى

إلى مكتبه الخاص .

فاتحته فى سبب زيارتى له ،فابتسم ، وقال لى :

– دعْنا من الحديث ، فهذا أمرنسيناه .

عدت أعرض ماجئت أسأله عنه ، ولا أعرف تماما كيف تحوّل الموقف بيننا . صار المسؤول يسأل . قال لى :

– أهم من ذلك أن نتعرف ببعضنا أنا وأنت . قد نصير صديقين . قدومك إلىّ يجعلنى أشعر أنك قرأت لى « مليم الأكبر » ، وأنك تمارس كتابة القصة .

قلت :

– وقرأت رواية« ملك من شعاع » ، وقصة « ضباب ورماد »

وكأنما مسَّت فيه إشارتى لضباب ورماد ذكرى خاصة . انفتح صدر «عادل كامل » لى . خلع جاكتته ، وألقى بمنديل كمه جانباً ، وشمر قميصه إلى منتصف ساعديه . وقال :

– الآن نتكلم . أريد أن أقرأ لك .

حدثته عن نفسي ، وحدثنى عن نفسه ، مؤكدا بين حين وآخر أننا نتعارف ، وأن مايقوله ليس للحديث الصحفى ، أرانى صورة لبناته الثلاث ، باح لى بأن « نجيب محفوظ » ، لايُدخل أحداً بيته ، فيما يعلم ، سواه ، باح لى بأن « نجيب » لايطلع أحدا قبله ،على قصة له ، إثركتابتها بالآلة الكاتبة، وأرانى رواية « أولاد حارتنا » الموضوعة على مكتبه (قبل أن تنشر مسلسلا بالأهرام ، وقبل أن تصدر فى كتاب ببيروت ، إثر اعتراض الرقابة الدينية على موضوعها) . وباح لى بأنه قدم لنجيب خدمة العمر ،

منذ أن عمل هو (عادل كامل) محاميا ، أتاح له أن يكتب سيناريوهات لأفلام السينما ، فغطى بأجوره عنها نفقات أعوامه كموظف بالأوقاف ، وأتاح له فراغا يوميا ، يكتب فيه قصصه ، كان سينفقه فى القلق على موارد المعيشة الشهرية ، وفى العمل الإضافى بأى مكان ، وضحك « عادل كامل » وقال :

– أنا سعيد حقا ، لأننى اتحت له هذه الفرصة ، أحدنا على الأقل قد بقى فى ساحة القصة يكتب قصصا .

رحت أسأله عن رأيه فى القصاصين اللامعين الذين تشهدهم ساحة الإبداع القصصية فى مصر : محمد عبد الحليم عبد الله ، وإحسان عبد القدوس ، ويوسف السباعى ، ومحمود البدوى ، وسواهم من المعروفين ، فما ظننت أنه يجد وقتا أورغبة لقراءة أحد من هؤلاء القصاصين الجدد ، فى صحيفة « المساء » أوفى مجلة « روز اليوسف » ، ولم يخف رأيه فيمن سألته عنهم ، ولم يتحرج فى البوح به ثم قال لى :

– هؤلاء صنعوا أنفسهم بالإعلام . لا أستثنى منهم سوى محمود البدوى فى بداياته الأولى ، ويضيعون أنفسهم وأوقاتهم بكتابة القص .

كنا قد قضينا ساعتين من الثانية ظهرا ، حتى الرابعة عصرا ، ونسى كلانا حاجته إلى الطعام ، لاشىء سوى الحديث وفناجين القهوة ، سألت عادل كامل :

– لم توقفت عن كتابة القصة ؟

قال لى :

– إثر موقف مجمع اللغة من روايتى ، أدركت أنه لاقبل لى بإضاعة

الوقت فى مناطحة الصخر . وأدركت أننى لن أعيش من قلمى ككاتب ، وأن قلمى لوصار فى يدى سيفا . ولاينبغى له أن يكون فى يد الكاتب ، سوى سيف ، سيجعلنى أعانى أكثر مشقة مجرد العيش . قررت فى تلك اللحظة ، أن أكون محاميا ، وهاأنذا كما ترى ، ميسور الحال . الشوانين ملأى بالملفات والبطاقات . شركات كثيرة بقلب المدينة قضاياها بمكتبى هذا ، وأنا بعد محامى الفنانين المقيمين فى مصر ، والذين يفدون إليها من الفنانين ، أويخرجون منها ، وبفضل معرفتى بهؤلاء ، الفنانين أتيحت الفرصة لنجيب ليكتب سيناريوهات للسينما ، ويواصل كتابة قصصه .

ثم أكد على ، قائلا:

– ماقلته تعارف ، وليس للحديث ، اسمع .

وطلب منى أن ألقاه غدا ، ومعى قصص أختارها له ، ليقرأها لى ، ولنزداد معرفة ببعضنا البعض .

فى اليوم التالى ، حملت له ثلاث قصص ، ولم يكن بمكتبه ، فرحت أتجول بين الكتب المجلدة ، فى دواليبها الزجاجية التى تحيط بالجدران الأربعة ، لايقطعها سوى فراغى النافذة والباب . كانت كلها كتبا فى الأدب، بلغات ثلاث ، وليس بينها كتاب واحد فى القانون ، وجاء عادل ، وجلسنا ، وواصلنا ما انقطع من الحوار ، وانصرفنا على موعد فى الغد .

قال لى فى لقائنا الثالث :

– قرأت قصصك ، ولاينبغى أن تتوقف عن كتابة القص يوما ، مثلما فعلت أنا .

أسعدنى ماسمعته منه ، وقلت له :

- أود أن أسألك سؤالا : أأنت حقا سعيد بما أنت فيه ، ولاتحن إلى الكتابة ؟

قال لي :

- سأقول لك الحق ، لست الآن ، ومنذ سنين ، سعيدا بما فعلت ، وإنى لشديد الحنين للكتابة ، وحاولت العودة إليها ، وقد استقرت لى الأحوال ، كتبت جانبا من رواية لى بعنوان : « الدائرة المشؤومة » ، موضوعها عن هذه اللقاءات التى كانت تجمعنا ، أنا ، ونجيب ، والسحار ، وباكثير ، تحت قاعدة تمثال ، بآخر كوبرى قصر النيل . لقاءات ضائعة ، حائرة ، لجيل ضائع ، لكننى اكتشفت أن قلمى قد صدئ ، وأن روحى لم تعد روح كاتب ، فقدت الدّربة ، احذر أن تفقدها يوما . الروح تتحفز وتتوهج بالممارسة . والقلم لايجف مداده بالكتابة .

وزفر عادل كامل بأسى ساخر ، ومرارة ضاحكة ، وقال :

- سبقنى نجيب . وتطوّر . وأنا حيث توقفت ، ولذلك لم أكمل روايتى ، وأزحتها جانباً .

ثم قال لى :

- انقذ نفسك من العمل بالصحافة . وبسرعة ، لاتعمل شيئا سوى كتابة القصة . سأتيح لك الفرصة التى أتحتها لنجيب ، وتعيش منها ، وتفرغ معظم وقتك « لقصصك » والبحث عن تجارب لقصصك .

وضحك ، وقال :

- سوف أعرفك أيضا بأجواء القاهرة التى لاتعرفها ، ويعز عليك الدخول إليها ، قلت بذعر :

– لكننى لم أدرس السيناريو .

قال لى مؤكدا ، وهو يقدم لى سيناريو لفيلم :

– خذ ، هذا سيناريو فيلم « باب الحديد » . اقرأه . واصنع مثله ، لن تبحث عن قصة للسينما الآن . قصتك « يهوذا والجزار والضحية » لغتها لغة صورة . وذلك ماتريده السينما ، ولاتحمل هم السيناريو ، المنتج والمخرج سيرحبان به ، وبهذه القصة .

قلت :

– سأحاول . لكن ..

قال لي ضاحكا :

– الرغبة فى نشر حديث معى تسيطر عليك ، كما تشاء . اكتب الحديث

قلت :

– سأطلعك على ما سأكتبه .

فقال لى :

– لا ذا كرتك طيبة ، وأنا أثق بك ، ولاتتحرج فى نشر ماقلته عن أحد :

وكتبت الحديث ، ونشرته ، وثار المكتوب عنهم ، ورفضوا الدخول فى أى حوار تعليقا على حديث عادل كامل لى .

وتهربت من لقاء « عادل كامل » مرة أخرى لقاء خاصا خفت من ضغطه على لأكتب السيناريو ، طول عشر سنوات ، خفت من تأثير كتابة السيناريو على كتابتى للقصّ ، فقد كنت ، ما أزال ، فى تقديرى لقصيّ ،

غضُّ العود . وخفت أن أدخل بقصصى فى دائرة مشؤومة أخرى .

دون عشرة جنيهات

أغرى الشاعر « فاروق شوشة » بالحديث الذى نشرته مع « عادل كامل » وبحديثى عنه ، وكان فاروق يعمل مذيعاً بإذاعة القاهرة ، ويقدم برنامج « مع النقاد » من البرنامج الثانى . واتخذ فاروق قرارا بإذاعة قصة « ضباب ورماد » من إذاعة البرنامج الثانى ، وتقديم حلقة من البرنامج مع « عادل كامل » وأذيعت القصة كاملة وزاد وقت إذاعتها عن ساعة وربع ساعة ، ولم يكن وقت الإرسال بالبرنامج يزيد آنذاك عن ثلاث ساعات . وأذيعت الحلقة فى حوار مدهش من الطرفين . السائل والمسؤول . ومايزال نصّ الحوار الذى نقله فاروق ، من الشريط المسجل تحت يده ،مع نصوص لحلقات أخرى مع صفوة المبدعين من الأدباء فى تلك السنوات ، ينتظر النشر فى كتاب .

وجاء موعد صرف المكافأة الإذاعية لعادل كامل عن قصة « ضباب ورماد » ، وعن حديثه الحوارى فى برنامج « مع النقاد » ، وسعَى عادل كامل إلى الإذاعة ربما حرجا منى ومن فاروق ليتسلم مكافآته ، وصحبه الساعى إلى وحدة العقود بين الدورين الرابع والعاشر ، وفوجئنا وفاروق ، بعادل كامل ، يوقع إذنى الصرف عن القصة ، والحديث الحوارى ، ويعطيه لمصطفى الساعى ، قائلا له : اصرف المكافأتين ، وخذ قيمتهما لك .

ولم يضطرب عرق واحد ، فى وجه عادل كامل ، كانت المكافأة عن قصة « ضباب ورماد » جنيهين وستة وعشرين قرشا من جنيهين ونصف ، بعد الاستقطاعات ، وكانت المكافأة عن الحديث الحوارى لمدة ساعة ، فيما أذكر ، خمسة جنيهات وكسور من القروش والملاليم ، بعد

الاستقطاعات ، فالحديث الحوارى أجره فى الإذاعة ، مهما كان وقته ، ثلاثة أرباع مكافأة الحديث غير الحوارى ، وكلاهما إلايسب له وقت فى تقدير المكافأة أكثر من عشر دقائق .

وغرقت فى العرق حياء من عادل كامل ، فأنا الذى جررته ، هو الذى استقرت به الأحوال ، وتوقف عن الكتابة هربا من مواجهة مثل هذا الموقف ، وما أحسب حال فاروق آنئذ كان بأفضل من حالى ، ونظر إلى عادل كامل ، وأنا أسير معه وفاروق إلى المصعد وقال لى :

– متى ستريح نفسك ، وتكتب سيناريو لفيلم ؟!



هوايـة كـاتب

فى مجلة « ب » ، كان عملى بمطبخ التحرير . عمل متواضع بأجر قليل ، أتدرب فيه على الكتابة ، والصحافة ، أغوانى به الصديق « ر . ن » ، قال لى : تعال معى وسوف تكون كاتبا كبيرا . كنت قد تعاقدت على عمل بالتدريس فى الكويت . فتركت عقدى ، وذهبت معه .

فى نهار يوم ما من أيام الصيف ، جاءنا شاب ، وقدم لى نفسه ، وتحقيقا عن حى بأسره من أحياء القاهرة . جلس الشاب « ع » ، وشرعت فى قراءة الموضوع ، الخط أنيق على ورق أصفر ، وسطور الكلمات مريحة للعين ، فانفتح قلبى . لا خطأ فى الإملاء ، ولا اللغة ، ولا التراكيب .

الحى حى القلعة ، المجاور للحى الذى أسكنه . التحقيق يعرض ببراعة صحفية ، مدربة ، ومدهشة ، تاريخ الحى فى الزمان والمكان ، يتداخل فيه بيسر ، ودون تعقيد : الماضى والحاضر . الوجوه التى صارت ذكرى فى ذمة التاريخ ، والوجوه التى ماتزال تعيش ، وروائح الزمن عبر العصور ، تفوح من السطور والكلمات ، وانتهيت من قراءه التحقيق قلت لـ « ع » بانبهار وحب :

– تسعدنا حقا معرفتك ، والتعامل معك .

لم يكن الصديق « ر » موجودا بالمكتب ، لأعرض التحقيق عليه ، وأقدم

« ع » إليه ، طلبت له شايا ، وذهبت بالتحقيق إلى الغرفة المجاورة . كانت أبدا نصف مظلمة ، ينيرها ، فى عز النهار ، ضوء خافت من الخارج ، عبر الشيش والزجاج . طرقت الباب . وتقدمت إلى « س » سكرتير التحرير آنئاك ، قدمت له التحقيق ، قائلا :

– أرجو أن تقرأه الآن . تحقيق مدهش .

أخذ « س » يقرأه بسرعة ، وجلست أرقب وجهه ، وأنتظر . كان وجهه كعادته محايدا تماما ، وهو يقلب الصفحات الصفراء . رفع وجهه ، ووضع الموضوع أمامه . وقال :

– موضوع جيد . ضعه فى هذا العدد . يحتاج لرسوم ، وعناوين مانشيتات . قلت :

– كاتبه معى الآن . وأقترح تعيينه بالمجلة ، كمحرر .

قال « س »ن » :

– لامانع . هاته لى .

وجه « ع »

عصر يوم آخر ، جاء « ع » ، ومعه تحقيق آخر ، عن قرية « سنباط » قرية أعرف أن سواد سكانها يشتغلون بالغناء والرقص ، فى الأفراح والموالد . كان التحقيق بخط غير الخط ، لكنه كان مثل سابقه ، لا أخطاء به فى الإملاء ، ولا اللغة ، ولا التراكيب . بدا لى التحقيق ، وانا أقرأه ، وبرغم اختلاف الخط ، يسير على نفس النسق ، وبنفس البراعة الصحفية المدربة. نظرت إلى ذيل التحقيق ، وجدته موقعا باسم « م » . نظرت إلى « ع » ، فقال لى .

– إنه لصديق أديب ، وظروفه .... وهو ينتظر بالخارج ، فى الصالة .

نهضت ، وفتحت الباب . رأيت شابا نحيلاً ، أسمر الوجه ، واسع العينين ، أليفا إلى القلب ، دعوته للدخول ، فوقف مبتسما . كان يرتدى بدلة شركسكين « موضة هذه الفترة » ، واسعة عليه ، الأكتاف والسواعد، والساقان . جلس « م » وقال :

– مارأيك ؟

طلبت من « ع » أن يتركنا وحدنا ، فنهض وغادر المجلة . فى وجه « ع » كانت ملامح غير مريحة . الوجه سمنى ، أملس ، من هذه الوجوه الشهوانية ، غير المعبرة . إذ أغلق الباب وراءه .

قلت لـ « م » :

– صارحنى . التحقيقات بقلم واحد ، ولكاتب واحد . دعنا من اختلاف الخط . ضحك « م » بخجل ورقة ، أشعل سيجارة .

وقال بشجاعة :

– هذا صحيح ، وأنا الكاتب . أنا كما ترى خجول ، وأخاف من ظلى .

وجاء الصديق « ر » فعاونه للعمل بالمجلة كمحرر مكتب مثلى . فرحت به حقا ، فهو ظريف ، وأنيس ، وحلو الدعابة ، وماهر مهارة بالغة فى إعادة كتابة موضوعات المحررين ، المليئة بالأخطاء من كل نوع ولون.

واكتشفت ، من « م » خلال العمل ، صداقته لـ « ع » ، وأنه يكتب له أويعيد كتابة كل مايقدمه « ع » للمجلة من موضوعات ، فى البيت ، أوفى المقهى . يحدد له « م » المطلوب من معلومات لموضوعه ، فيجمعها هذا ، ثم يجلس « م » ويصوغها باقتدار فى نسق تحقيق ، أوحديث .

سألته وأنا أضحك :

– لم ؟ أتقسم معه ؟

– لا ...

– أله عليك أفضال ؟ !

– ولا هذا .

عدت أقول بحيرة :

– لم إذن ؟

فأجابني بكلمة واحدة ، وهو يضحك :

– هواية !!

دهشت ، وصمت ، وفي عقلي حيرة . أية هواية هذه التي يقدم بها شخص إلى الناس على أنه كاتب ، ولا مقدرة لديه على ذلك ، أكثر من أنه كسواد العاملين في الصحافة ، جامع معلومات .

حديث مع نجمة

مع « س » نفسه ، اشتغلنا لشهور في صحيفة « ج » ، أنا و« م » ، بمكافأة ، ودون عقد ، لاتزيد عن عشرة جنيهات ، كنا أيضا في مطبخ صفحة « س » الأسبوعية ، وجهدت و « م » لزيادة المكافأه بعمل تحقيقات حراقة ، وتقديم أخبار ساخنة ، لكن الأجر ظل كما هو شهرا بعد شهر . الجنيهات العشره هي هي . ولم يعجبنا الحال فخرجت أنا و « م » من المجلة ، أنا إلى وزارة الأوقاف و « م » غطس ، ولم ألتقِ به إلا مصادفة . وفي إحدى المصادفات لقيته . سألته موعدا للقاء ، فحدد لي موعدا بكافيتريا

فوق حلوانى ، بشارع قصر العينى . ذهبت إلى « م » فى الموعد . وجدته يصب حديثا مع الممثلة النجمة الشهيرة « س » ، يضع الأسئلة ، ويضع الأجوبة أيضا ، ومن الذاكرة . وجلست انتظر فراغه مما يكتبه بخط أفقى كنبش الفراخ ، لاماته والفاته مثل نوناته ، وحين انتهى أقرانى الحديث ، وهو يبتسم بسخرية ، وعيناه تبرقان ، كأنه يقدر سلفا انطباعاتى عما سوف أقراه . كان بين الأسئلة والأجوبة :

– هل تحبين الملوخية ؟

– موت ؟

– يطبخها لك الطباخ ؟

– بل أطبخها بنفسى . ياسلام لونقتها . تاكل صوابعك وراءها .

وفى نهاية الحديث ، كان التوقيع : « ع . ص » .

قلت لـ « م » :

– حديث طيب ، لكنه مضحك ، توقعت أن يكون التوقيع لصاحبنا « ع.ص » .

أين سينشر ؟

– فى مجلة « أ . ت » . فصديقنا يعمل بها الآن

– مازلت تمارس نفس الهواية

– له بيت ، وأعيش معه . وأنتظر عملا فى مجلة « م » . صديقنا « س » وعدنى بتوسطه عند رئيس التحرير .

كاتب عبقرى

كنت قد عملت شهورا بوزارة الأوقاف ، وبدأت أنسل منها لضآلة المكافأة ، جنيهات عشرة أيضا ، واستأنفت الكتابة للإذاعة ، فى برنامجين إذاعيين وقدمت صديقى « م » إلى النجمة الإذاعية « س . ص » . واعتقدت أن « م » سيستغنى بأجور مواده ، الإذاعية عن هوايته ، ولكنه ، لدهشتى، ظل يمارس هوايته لصالح « ع . ص » وبدا لى أن فى الأمر سرا ، قد يكون الخجل من الرد والرفض ، وقد تكون العادة ، وقد يكون الإشفاق على صديق . إلى أن أصبح صديقى « م » كاتب تمثيليات للتليفزيون ، لم يلبث أن صار فيها نجما ، مع المخرجة الصديقة « ع » فى السنوات التى هربت فيها من القاهرة ، ومن الصحافة والإذاعة والتليفزيون ، للعمل مدرسا بالسعودية .

التقيت بعد أعوام من العمل بالتدريس فى السعوديه ، ثم فى البدارى ثم فى الإسكندرية ، بصديقى « م » ، وكنت قد انتقلت إلى القاهرة ، مدرسا أيضا . شكوت إليه ضآله المرتب ، وعدم كفايته للمعيشة . فصحبنى إلى النجمة الإذاعية « س . ص » ، وقدمنى إليها ، فقد باعدتنى سنوات الانقطاع عن العمل من ذاكرتها ، اعطتنى « س . ص » نصا إذاعيا لـ « م » ، وقالت :

– اقرأه . واكتب مثله . إنه كاتب عبقرى .

نظرت إلى « م » وضحكنا بأسى ، وحب .

وقال « م » لـ : « س . ص » إننى عمه وأستاذه ، فسجلتها عليه ، ولم أعرف إلى اليوم سببا لهذا الوصف . سألته حين خرجنا من مكتب النجمة الإذاعية :

– أمازلت تمارس هوايتك ؟

فقال بتأكيد :

– نعم .

– لم ؟

ضحك وقال :

– هواية . ماذا أفعل ؟

عصر الزيف

شاهدت فى دور السينما أفلاما جيدة ، عن روايات لكاتب شهير ، أدهشنى أن يكون كاتب السيناريو لها هو : « ل » وكان سبب الدهشة معرفتى بأنه كاتب ردئ . كان يقدم لنا ونحن نعمل بمجلة « ب » موضوعات صحفية ، غير متماسكة ، مليئة بأخطاء الكاتبين الصغار والناشئين ، وكان « طبخ » موضوعاته يجهدنا غاية الإجهاد ، ولقيت الصديق « م » . سألته فى دهشة :

– كيف يمكن أن يكتب « ل » مثل هذه السيناريوهات ، من أين له هذه الخبرة ، وتلك القدرة المفاجئة ؟

فابتسم « م » ، وقال وهو ينفخ دخان سيجارته ، بهدوء شديد :

أنا كاتب هذه السيناريوهات

صحت :

– لماذا ؟

فانفجر ضاحكا ، وقال :

- هواية .

صحت :

- هوايتك كانت مع : « ع . ص » . وسكت . قلت بينكما ود قديم . افهم ذلك ، لكن ، مع « ل » انت ترتكب جريمة ، تصنع منه كاتبا ، وستقدم له يوما ، بسبب ذلك منصبا يتحكم به فى رقاب العباد .

فقال بهدوء:

- إن لم أكن أنا ، سيجد غيرى ، ويحقق ماسوف يصل إليه . نلت منه الف جنيه عن كل سيناريو ، بعيدا عن الضرائب ، ولو استطعت تسليك هذه السيناريوهات لنفسى وهذا عسير جدا لفعلت ، ودفعت الضرائب .

ثم نظر إلى ، وقال :

- نحن فى عصر الزيف . تذكر آلاف الأشياء والأمور من حولنا . سوف ترى صدق ما أقول ، وتتفرج .

بداية .. الهواية

صدرت للكاتب القصصى : « .... » ، مجموعة قصصية عن الطبقات الشعبية أحدثت بعض الضجة ، وكتب عنها نقاد الأعمال الأدبية عن هؤلاء « البسطاء الشرفاء . ولقيت صديقى « م » . وتحدثت معه عن المجموعه ، وقلت له عنها ، إنها لاباس بها ، فقال لى :

- كتبت يوما أول مانزلت القاهرة ، عددا من قصصها ، أستطيع أن أسميها لك بالاسم .

- ضحكت ، وقلت غير مصدق :

– للهواية أيضا ؟

قال :

– ربما . حين كتبت له هذه القصص . عرفت الجوع . وفقد المأوى .

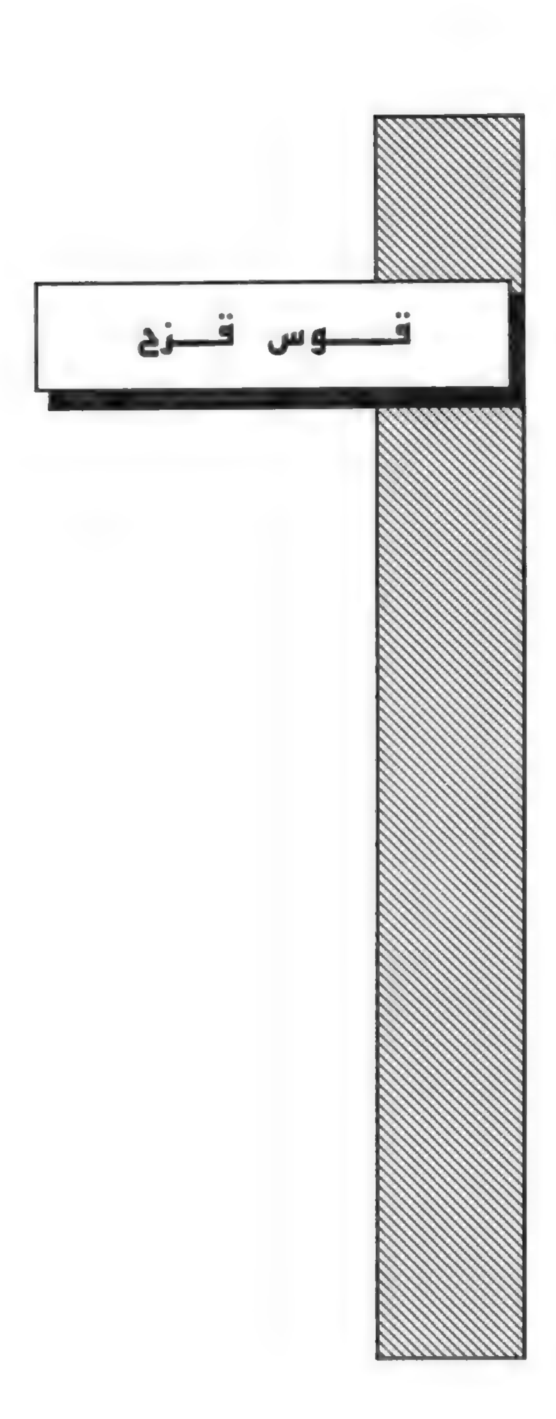
كان يصحبنى معه إلى بيته ، اتعشى ، وأبيت . اكتب له قصة . ينشرها باسمه ، واقترض منه جنيها .

ظننت مع ذلك أنه يبالغ فى الحديث عن هوايته ، حتى لقيت الصديق الكاتب « غ . هـ » ، فاعترف لى بدوره ، أنه كتب له أيضا أكثر من قصة ، وأحيانا كان يكمل له قصه كتب منها نصف صفحة . ولقيت صديقا أخر ، شاعرا : « ج . ع » ، لاعهد لى بكونه كاتب قصة ، فأخبرنى أن خير قصص صاحب المجموعة ، التى تحمل المجموعة عنوانها ، كتبها هو . قال لى :

– أعطيتها له ، للنشر فى مجلة « ر » ، فهو يعمل بها ، وإذا بى أفاجأ بأنها منشورة فى العدد التالى من المجلة باسمه . ثرت ، وذهبت إلى مجلة « ر » وفضحت الأمر . وحدث تحقيق ، وبكى بحرقة أمام رئيس التحرير . اشفقت على مأساته ، وسحبت شكواى ، وأنهيت هذا الأمر .

نهاية هواية

فر الصديق « م » بقلمه إلى شركات التليفزيون العربية ، ثم هاجر مع قلمه بجسده . كان يسافر ويعود ، ويذهب ويأتى . صار كاتب مسرح ناجحا وكاتب مسلسلات تليفزيونيه ناجحا ، لكنه عرف الصمت ، والحزن ، والشعور برغم عمله باللاجدوى . فثمرات فنه مسرحا وقصة ، لا تعرف طريقها إلى العرض فى وطنه الصغير : مصر . وأكاد أجزم عن يقين أنه قد فارق هوايته ، مع الزمن .



قــوس قــزح

دعابة ثقيلة

عرفت صاحبنا « قوس قزح » أول مرة ، وأنا أغادر مبنى الإذاعة القديم بشارع الشريفين . سألنى ، ولم أكن أعرفه معرفة تذكر ، سوى بالاسم ، كما لا أعرف عنه سوى أنه كاتب ، ولم أكن حتى تلك اللحظة ، قد قرأت له شيئا ، وأنه أحد المتواجدين فى حياتنا الثقافية ، والإعلامية ، وكان شخصه ، آنئذ ، مرتبطا فى ذهنى أبدا بربطة عنق لا تفارقه فى صيف أوشتاء ، وبدلة يختلف دائما لون « جاكتتها » عن « سروالها » . قال :

– أين كنت ؟

قلت بدهشة لنوع السؤال ، ووقته :

– كنت فى هذا المبنى .

قال ببساطة مستفزة :

– من هناك ؟

أجبته ببساطة عمن كنت معهم ، أمام استوديو ١٢ ، فى ركن الجلسة الدافىء المخصص لزوار النجوم من المذيعين .وكانت بينهم فيما ذكرت ، مذيعة نجمة ، اسمها من جهة « اللقب » هو نفس اسم « لقبه » فضحك

وقال بهدوء شديد :

- أتعرف من هذه ؟

قلت :

- لا .

فقال ببساطة بالغة ، كمن يتنفس بيسر :

- إنها زوجتى .

وظننت لغفلتى ، أوطيبتى ، أن زوجته قريبة له أو أنها تحمل اسم زوجها ، على الطريقة الفرنسية بعد اسمها . وفيما بعد فى اليوم الثانى، أو العاشر ، سألت صديقا لى ، وزميلاً لها يعمل مذيعا معها ، عن « فلانة» : هل هى زوجة « فلان » ؟

فضحك ، وقال :

- من قال لك ذلك ؟

فقلت له :

- هو .

فقال لى :

- كيف ، وهى زوجة زميلنا « فلان » .. المذيع معنا .

ووجمت ، ففلان هذا أعرفه ، كما أعرفها ، وفكرت أن صاحبنا « قوس قزح » كان يهزل ، أو ربما كان يعطي نفسه حجما ونفوذا ما ، فى عينىّ لسر لا أعلمه ، ولم أعلمه قط حتى الآن .

استعارة

ذهبت لزيارة أستاذ جامعى ، ناقد ، أو بالأحرى مؤرخ نقد ، وواحد من قلة قليلة في بلادنا ، تحسن دراستها للأدب المقارن ، كان الأستاذ صديقا بقدر ما تكون الصداقة بين أستاذ وتلميذه ، قيل لى إنه معتكف ، وقيل لى إنه مريض ، وكنا فى فصل الشتاء ، سألنى عن « قوس قزح » ، وأنا أعوده :

– أتعرفه ؟

قلت :

– أجل .

وأردفت بدهشة ، وتخوف ، لا أدرى سببه :

– هل وصل إليك ؟

توقعت فى نفس اللحظة ، أن يكون قد الحق به أذى ما ، لا أدرى : لم ؟ قال لى الأستاذ الصديق :

– أجل ، لم أكن أعرفه من قبل ، حتى تلفن لى ، وطلب مقابلتى ، فحددت له موعدا وجاء .

وكان سؤالى قد رابه ، فقال لى :

– أليس هو معيدا بقسم اللغة الفرنسية . بكلية الآداب ؟

ضحكت ، وقلت :

– هل قال لك ؟

فشحب وجهه قليلا ، وقال ، كأنه شعر بأنه قد وقع فى فخ :

– لكنه قدم لى بطاقة ، عليها اسمه . وتحت اسمه : معيد بقسم اللغة الفرنسية ، بكلية ... و جامعة ...

قلت مقاطعا :

– لا صلة له ياأستاذنا بأى قسم ، ولا بأى كلية ، ولا بأى جامعة .. حتى الآن . وجم الأستاذ الجامعى الصديق ، وتمتم :

– قال لى إنه يعد رسالتيه الماجستير . والدكتوراه عن الأدب المقارن . وطلب عونى ، وقال إنه سيستشيرنى كلما واجه مشكلة فى رسالة ، فهو لا يثق بأساتذة القسم ، ولا بالمشرف عليه ، بقدر ثقته بشخصى وعلمى . تصور .

قلت بتخوف :

– هل أعطيته كتباً ؟

قال على الفور :

– صفوة ما عندى من كتب ، حتى الكشاكيل التى كنت أدون فيها ملاحظاتى وتعليقاتى . وأنا فى أثناء الحرب العالمية الثانية لا أستطيع أن أغادرها .. طول ست سنوات ، أعطيتها له .

قلت :

– كم مضى على أخذه للكتب والكشاكيل ؟

فقال . وهو يجهد للتذكر :

– عامان أو أكثر .

قلت بيأس من أية قدرة على معاونته فى استرداد كتبه ودفاتره :

– لن يعيدها إليك ، استعوض الله فيها . ولا أعرف حتى الآن إن كان قد أعادها إليه ، أو طلبها الصديق الأستاذ منه . لكننى أكاد أجزم أن كلا الاثنين لم يحاول شيئا نحو الآخر ، وربما لم ير أحدهما وجه صاحبه .

فيما بعد ، عرفت أن هذه الاستعارة ، غير المردودة ، كانت فى حينها . فصاحبنا « قوس قزح » يحسن الاستفادة من الكتب ، والملاحظات ، والتعليقات ، فيما يكتبه من كتب ، ومقالات ، بالقص ، واللصق ، والمونتاج ، وحسن الصوغ لأفكار الغير ، بطريقة يحسن إخفاءها ، عن أى معرفة لنسبتها ومصدرها .

وصديقنا الأستاذ الجامعى ، مرض بذات الكبد ، مرضا طويلا ، وودع الدنيا ، وما بقى عنده من كتب ، بل ودفاتر ، ورسائل جامعية للطلاب الذين كان يشرف عليهم ، بيعت من بعده ، بأرخص الأثمان ، على الأرصفة مع باعة الصحف ، وأسوار الكتب الشعبية ، ومكتبات الكتب القديمة ، فحدثت نفسى :

هل كان صاحبنا « قوس قزح » على صواب ، حين أخذ ما أخذه من كتب ؟!

زيـــارة

زارنى صديقنا الكاتب ، المغترب الأبدى ، وقال لى ؟! إن صاحبنا « قوس قزح » مريض ، وأجريت له عملية جراحية ، لاأذكر إن كانت زائدة دودية، أو بواسير ، وإنه ذاهب لزيارته وجاء ليصحبنى معه فصحبته إلى بيته .

دخلنا غرفة مكتبه ، وطلب منا الانتظار ، فصاحبنا « قوس قزح » بالحمام ، فأدركت أنه الآن بخير ، وفى فترة الانتظار التى طالت ، جىء لنا

بالشاى . ولما كانت الكتب ليست أسرارا خاصة ، وكانت الأوراق المكتوبة من الأسرار الخاصة ، حتى تنشر ، أو يطلعك كاتبها عليها ، قبل نشرها ، فقد تجافيت عن أوراقه على المكتب ، ورحت أقلب فى الكتب الموضوعة على مكتبه . كانت كلها كتباً نقدية ، ضخمة الحجم ، وصدرت خارج القاهرة ، وبعضها كان مترجما هذه الترجمات المتعجلة ، غير الأمينة ، التى تصدر فى العاصمة « الترانزيت » .

وكانت بين صفحات الكتب ، بين بعض الفصول ، أو صفحات بالفصول ، قصاصات أوراق مستطيلة . ولفتت نظرى خطوط طولية ، مقوسة على فقرات بعينها قد تستغرق صفحات ، وقد كتب صاحبنا « قوس قزح » بجانبها بالقلم الرصاص أيضا « تنفع فى فصل كذا ، بكتاب كذا » ، وهكذا كانت كل الكتب ، بجانب كل الخطوط ، فى عديد من الكتب والصفحات .

أطلعت صديقنا الكاتب ، المغترب الأبدى ، عليها . وقلت ، فيبدو أننى ولدت مسحوبا من لسانى :

– أرأيت . صاحبنا يكتب بطريقة القص ، واللصق . وأشك أنه يسطو ، ويحسن الصياغة ، وفن الإخفاء .

فلم يعلق صديقنا الكاتب ، المغترب الأبدى ، بشىء . وفكرت أن كليهما ينتمى إلى الآخر ، ذلك الانتماء الذى يوقع فى الانحياز ، والتعصب الذى يُحسن كلاهما إخفاءه .

وجاء صاحبنا « قوس قزح » مستحما ، ضاحكا ، متورد الوجه كعادته، وقلت له ضاحكا ، بعد السؤال عن الصحة :

– كنا ننم عليك .

وأريته مارأيته ، وأعدت عليه ماقلته ، فضحك ، ولم أشعر أن ضحكه مراعاة لكرم الضيافة ، وقال :

– ياسيدى . (بمعنى : لاشئ يهم ، أو : لا تأخذ فى بالك ، أو ..)

بوتيك

فى سنوات الهجرة الكبرى لأصحاب الأقلام بأقلامهم . أو بأقلامهم وأبدانهم معا ، إلى الأقطار الشقيقة ، والأجنبية ، مع أصحاب الحرف والمهن مع الزراع والصناع ، هاجر صاحبنا « قوس قزح » بقلمه وشخصه إلى عاصمة عربية ، من هذه العواصم « الترانزيت » و « البوتيك » الكبير لكل شىء : الفكر والمادة معا ، الذى تصب فيه كل الروافد .

وبين حين وآخر ، كنا نقرأ له ، مقالات وكتبا ، كانت شجاعتها تثير العجب ، والخوف ، لو أنها صدرت له وهو فى القاهرة كان صداها يمكن أن يكون عندئذ أكبر ، حتى لدى السلطة التى كانت تسير آنذاك فى شِجْب عهد مضى ، بين المثقفين والسياسيين وغيرهم ، لكن الوافد من كتب صاحبنا « قوس قزح » وصحفه كان قليلا ومحدودا ، لا يثير ردود فعل داخلية تذكر وللدهشة .

فوجئنا بصاحبنا « قوس قزح » . يعلن عن إصدار مجلة فكرية « نارية » ، ويبَلِّغنا أنه كتب لهذا ، أولذاك ، يطلب منه التعاون معه بالمقالات فى تحرير المجلة ، وأنه سيدفع أجرا جزيلا . وزاد فى دهشتنا أننا لانعرف أية دار نشر ستصدر عنها هذه المجلة الفكرية « النارية » ، أومن سيموّلها ، فصاحبنا « قوس قزح » فيما نعرف ، يعيش بالكاد من قلمه ،

وربما بسبب ذلك كانت هجرته بشخصه وقلمه معا .

وصدر من المجلة الفكرية « النارية » عددان ، رفيعا التحرير ، والطباعة ، والمادة والمستوى ، وعلى غير انتظار توقف صدور المجلة الناجحة ، لسبب لانعلمه . وجاءتنا الأخبار بأن صاحبنا « قوس قزح » ، ارتحل إلى مدينة النور ، وقيل لنا (والعهدة على الرواة من مروجي الإشاعات) : إن صاحبنا « قوس قزح » ، قد أخذ عشرين الف (كذا) من عاصمة عربية ، زاعما لها أن المجلة الفكرية « النارية » مجلتها ، وأخذ عشرين الف (كذا) أخرى ، من عاصمة عربية ثانية ، زاعما لها أن المجلة الفكرية « النارية » مجلتها . وخلال ذلك أصدر العددين بما تيسّر من تكلفة ، وحمل بقية المبلغين معه ، وارتحل إلى عاصمة النور ، والأمل !!

منازع كاتب

كم سنة مرت ، وصار صاحبنا « قوس قزح » ، مشرفا على صفحات ادبية ، أحسن حقا الإشراف عليها ، وتحريرها ، تحرير متابعة للواقع الأدبى ، والفنى ، وبأقلام رفيعة المستوى . لكن صاحبنا « قوس قزح » سقط من عينى فجأة ، إذ كتب مقالا ، من هذه المقالات التى ترصد حصاد الواقع الثقافى لعام مضى ، فلم يتوقف إلا عند عطاء الكبار (دون غيرهم من الموهوبين) ، وعند عطاء اثنين ينتميان إليه ، وينتمى إليهما .

وجاء المقال مثيرا للامتعاض ، والشعور بعدم الحياد ، والأمانة . ولم يغفر له ذلك فى نفسى قط ، بالنسبة إلى نفسى ، وإلى غيرى ، من جيلى ، ومن الأجيال الصاعدة ، ولم تشفع له عندى تحيته النقدية لأول مجموعة قصصية صدرت . لى ، وإطراؤه لحوارها ،واستثمارها للأسطورة ، وعدّى واحدا من بضعة كتاب يعدون على أصابع اليدين ، باخت فى داخلى تحيته،

وأيقنت أنه يسير فى طريق آخر ، تحدوه المجاملة والتقرب ،أو يدفعه الانحياز الانتمائى إليهما .

فى تلك الأثناء ، راح صاحبنا « قوس قزح » يصدر كتبا عن كبار الكتاب، متخطيا مسؤليته الأولى عن جيله ، والأجيال التالية ، ومهتدياً بالحكمة القائلة « من ليس معه يؤخذ منه ، ومن معه يعطى ويزاد » . كان حريصا ،مثل كثيرين غيره من كتاب جيله المشتغلين بالنقد ، على دعم أواصره للعمل الوظيفى ، وللتواجد المهنى ، بنجوم ورواد ، حتى بعد موت أحدهم ، من أعمدة الأدب وعمدها .

انتهز فرصة موته ونشر حديثا ، أو محاورة مطولة ، معه ، قال انها تمت معه قبل موته ، فى مرضه الأخير ، وكنا نعرف ، أنه معزول فى مرضه هذا ، عن كافة الخلق ، إلا من أهله ، وأنه ، على ضيق ذهنه ، يعانى من تتابع القول ، والجهد المبذول للقول .

وثارت الأوساط الثقافية ولم تقعد .

وانكفأت على قراءة الحديث المحاورة ، علّى أن أرى جديدا فيه ، يقوله عمدة الأدب الراحل ، وخرجت بانطباع واحد ، لا رادّله فى نفسى ، بغض النظر عن كل ما قاله أوكتبه غيرى آنذاك ، أن هذا الحديث المحاورة « مفبرك » من ألفه إلى يائه .فالمقولات ، على لسان عمدة الأدب ، فى الحديث المحاورة ، هى نفسها التى قرأتها له فى كتبه من قبل . فقط ، الاختيار موفق ، والصياغة ماهرة وقديرة وماكرة ، لم أجد الشجاعة ، آنئذ، أو ربما الدافع ، لأقول رأيى ، فى حديث محاورة ، اختلقه ، فيما أعتقد كاتب مهاجر بالقلم وبالبدن ، ينتمى إلى بلدى ، وانتمى إليه ، وينتمى إلى انتماء الوطن .

زوبعة .. في فنجان

هبت على القاهرة ، عاصفة أخرى ، من عواصف صاحبنا « قوس قزح » ، البشوش الوجه ، الواسع العينين ، الذى لم أره ثائرا قط ، ولا غاضبا مرة .

تناقل النمامون والمغتابون ، من رواة الإشاعات (والعهدة على الرواة) خبر انقضاض صاحبنا « قوس قزح » ، على مطار عاصمة عربية ، فألقى القبض عليه ، والعهدة على الرواة ، لأنه سبق أن وجع هذه العاصمة ، . فى مال أخذه لمجلته الفكرية « النارية » ،و(العهدة على الرواة) ، فطلب مقابلة سياسى كبير ، (والعهدة على الرواة) لأنه جاء على عجل لمقابلته (والعهدة على الرواة) ، فأذن له بالمقابلة إثر مكالمة تليفونية ، (والعهدة على الرواة) ، وجلس صاحبنا « قوس قزح » إلى السياسى الكبير (والعهدة على الرواة) ، وفاجأه بأنه قرأ نظريته عن الكون والانسان والحياة (والعهدة على الرواة) ، وآمن بكل ما فيها (والعهدة على الرواة) ، ففاجأه السياسى الكبير بأن طلب منه أن يعلن ذلك على الملأ كافة (والعهدة على الرواة) ، واتصل السياسى الكبير بتليفزيون بلاده ، وحجز له ساعة على الشاشة الصغيرة ، يقول فيها رأيه الذى آمن به فى نظريته الكونية هذه (والعهدة على الرواة) ،

ولم يجد صاحبنا « قوس قزح » مفرا من الذهاب إلى التليفزيون ، والتحدث فيه ساعة عن نظرية السياسى الجديدة البكر (والعهدة على الرواة) ، ويعلن صاحبنا « قوس قزح » فيما يعلن عن تغييره لانتمائه (والعهدة على الرواة) ، ويعود إلى السياسى الكبير فيعطيه (والرقع مبالغ فيه فيما أرى) ربع مليون مرة واحدة (والعهدة على الرواة) لكى

« يبشر » بانتمائه الجديد فى بلاد الخواجات ، بهذه الفلوسات ، (والعهدة على الرواة) وتعس كل الرواة !!

ويعود صاحبنا « قوس قزح » إلى القاهرة ، واسأله عن كل ما قاله الرواة فى غيبته (نما وحقدا) ، فيضحك ، ويقول فقط :

- وأنت .. هل تصدق ؟

ولكم أود إلى الآن ، أن أعرف : هل أصدق فأصدق ؟ أم هل أكذب فأصدق أيضا ؟!

والحق أقول لكم إننى حيال صاحبنا « قوس قزح » أخشى أن أظهر إعجابى به ، فيسخر منى الرواة ، أوضيقى به ، فأفقده ، وهو ما سوف يحدث إثر قراءتكم عن هذا الوجه .

كلما تذكرته ، تذكرت ما أعرفه عن ألوان « قوس قزح » فى واد ضيق كالأخدود ، بين قمتى جبل ، من قمم جبال السلط بالأردن ، فى يوم شتوى ، ضاحى الشمس ، لبخره ندى ، ألوان تثير الانبهار والخوف ، والإعجاب والرعدة ، تسرى جميعا فى منابت الشعر .



الأقنعـــة الســبعة

فى سنوات الأربعينات ، كانت تصدر بمصر مجلة مصورة هى مجلة « مسامرات الجيب » كان يرأس تحريرها « عمر عبد العزيز أمين » صاحب سلسلة « روايات الجيب » الشهيرة التى أثرت على شباب الأربعينات ، حبا للقص ، وجرأة عليه . وكانت المسامرات تنتزع الأرض الصحفية من مجلتى « الاثنين » ، و« الهلال » بصفة خاصة ، وتنافس بصحفيتها وموادها التحريرية المنوعة مجلتى « الرسالة » و« الثقافة » ، تواجه بالوجبات الثقافية السريعة ، لجيل جديد ، الوجبات الثقافية الدسمة بمجلات « الرسالة » ، و « الثقافة » ، و « الكتاب » و « الكاتب المصرى » .

كانت مجلة رومانسية الطابع والتوجه ، يجد فيها القراء أثناء الحرب العالمية الثانية وبعد هذه الحرب ، التسلية والمهرب ، وكانت تعتمد فى جانب كبير منها على الترجمة للقصص الرومانسى ، هذه الترجمة المشوهة ، والتى لاتجد مانعا من التلخيص ، والإضافة ،والحذف والتعديل وكانت أزمة حصول المجلات والصحف على ورق فى ذلك الحين طاحنة .

إلى صاحب المسامرات أخذ شاب يبعث بفيض من القصص الرومانسية ، تحمل توقيعه ، وتمر الأسابيع ولا قصة واحدة منها تنشر . وذهب الشاب إلى صاحب المسامرات سائلا عن مصير قصصه . فقال له

فيما يحكى العالمون ببواطن الأمور :

– قصصك صالحة للنشر بالمسامرات ، لكنها طويلة بعض الشئ . ونحن نعانى من أزمة ورق .

– أوشك الشاب أن يقول له : إنه على استعداد لاختصارها للحيز المطلوب ، لكن فكرة أخرى ومضت فى رأسه ، كان له قريب ، ربما كان خاله ، يهيمن على توزيع الورق على الصحف والمجلات ، فقال له فيما يرويه المعاصرون :

– وإن حللت لك أزمة الورق هذه ، وبالسعر الرسمى ، بعيداً عن السوق السوداء .

فأجابه صاحب المسامرات :

– ياليت ، ننشر لك قصصك إذن ، ونحن مطمئنون ، ولانبالى معها بقصر ولا بطول .

منذ ذلك الحين ، صارت تتوسط صفحات المجلة الأسبوعية ، كل أسبوع تقريبا ، قصص الشاب ، مفرودة على الصفحات ، ومزينة برسوم ملونة ، يتصدرها اسم الضابط الشاب ببنط خطيٍ كبير .

كانت القصص رومانسية ، توشك أن تكون ضربا من الأساطير والخرافات ، تتسق مع طابع المجلة الرومانسى العام ، وتلبى حاجة أرباع المتعلمين ، والمراهقين والمراهقات ، إلى التسلية والترفيه ، والهرب من الواقع المأساوى لجو الحرب العالمية ، وآثارها .

ولمع اسم الشاب الجديد إلى جانب أسماء أخرى من نفس الطراز من الرومانسيين : الوردانى ، وغراب . وكانت القصة العربية ، فى مصر ،

تشق لنفسها دروبا واقعية أخرى على أيدى كتاب كبار . ويقال والعهدة على الرواة ، إن قصص الشاب لم تكن له ، وانها كانت بين أوراق أبيه ومن تأليف أبيه ، وانه تجرأ على نسبتها لنفسه ، ولم يتسع لى الوقت ولا الجهد يوما للتحقق من هذا الأمر ، ولا أذكر أن قصص الشاب بالمسامرات ، قد نشرت فى كتاب بعد ذلك ، بين كتبه الكثيرة . فهل طوى الشاب هذه الصفحة ، بعد أن نال ثمرتها ، وخجل فيما بعد من استمرار هذه الكذبة على أمل أن ينسى الناس ، أو أن يخنق هذه الخدعة فى ضميره ، أم أننى أسوق الشك جزافا دون تحقق من مدى صحته ؟!

صانع المعجزات

كان صاحبنا من الضباط الشبان الذين يمارسون الكتابة ولم يكن من الضباط الأحرار .

بعد قيام الثورة ، واستقرار الأمور ، وفيما أذكر إثر جلاء المحتل ، وكانت الأحزاب قد حلت ، والبرلمان قد ركن على الرف ، والدستور قد ألغى ، ليحل محله دستور مؤقت ، كانت الثورة تستهدف السيطرة على الرأى العام بالصحف ، وعلى الثقافة بالمجلات والأجهزة ، وكان من الطبيعى أن تتقدم الثقة بالضباط المتصلين بالثقافة بسبب ما ، على الثقة بغيرهم من المدنيين ، أوعلى الأقل يوكل إليهم قيادة الأمور ، وتدبيرها بالتخطيط . وكانت الفرصة ذهبية ، للضابط الشاب ، ليكون رجل الدولة الجديدة ، فى الثقافة المصرية ، وفيما بعد فى الثقافة العربية ، والآسيوية والأفريقية .

تقدم الشاب ، بمشروعات لأجهزة وأندية ومصالح ثقافية ، وتمت الموافقة عليها . فظهرت مهاراته الإدارية فى التخطيط والإشراف والمتابعة ،

وجاء حين صار فيه (مصريا ، وعربيا ، وأفرو آسيويا) صاحب مناصب سبعة ، كان عليه أن يرتدى لكل منها قناعا في كل ساعة من ساعات يومه . وكان قوى البنيان ، بائن الطول ،ملون العينين ، تشى ملامح وجهه وبشرته بأصوله التركية القديمة .

كانت غايته الأولى ، وغاية الدولة منه ، أن يستقطب دائما المثقفين إلى صف الخط السياسى للدولة ، وإلى الولاء لشخصه ، وإلى جانب ذلك أن يحقق لنفسه لقب « الكاتب الكبير » عبر محورين فى موضوعات قصصه : أحداث الثورة ، والحكايات التى تستهوى المراهقين والمراهقات ، فى جو رومانسى ، وأكثر مصرية ، يجهد ليكون واقعيا ، ورمزيا ، فى نفس الوقت ، ففى مواجهته فى دنيا القص ، كُتّاب كبار ولوامع ، كثيرا ما أثاروا غيرته وغيظه ، فالقراء المثقفون يحتفون بهم ، أكثر منه ومن نظرائه ، والنقاد دائمو الكتابة عنهم كلما صدر لأحدهم كتاب جديد . وكان يقول دائما للنقاد :

– أليس فى البلد سوى فلان وفلان ؟ لماذا لا تكتبون عنى ، حتى ولو بالشتيمة ، وعن فلان ، وفلان ، وفلان ؟ أنتم متحيزون و ....

كانت كل مقاليد الثقافة تقريبا فى يده ، وكان نفوذه واسعا ، على الصحف ، وعلى المجلات ، ولكنه لم يستطع أن يملك قلب أحد ، أو قلم أحد، ممن يعنيه أن يمتلكهم ، سوى بعض المتحلقين ، والمتزلفين ، والوصوليين . ومع ذلك كان دائم الإصدار لكتبه ، عبر دار نشر وحيدة ، وكانت كتبه رائجة ، واسعة الانتشار ، سرعان ماتتحول عناوينها إلى جمل محفوظة تتردد على ألسنة المراهقين والمراهقات فى كل حوار ، وسرعان ماتتحول حكاياتها إلى أفلام ، تنحدر معها دموع المشاهدين ، فى المواقف

الميلودرامية . وكان يقول لزائريه رافعا إحدى قدميه عن الأرض وهو جالس إلى أعلى قدر مستطاع :

– من فلان ؟ ومن فلان ؟ .. أنا وحدى تأتينى كل يوم رسائل من القراء ، بهذا الارتفاع . أنتم أيها المثقفون والنقاد مخدوعون .

كانت تلك محنته ، وجراحه ، وظل يحاول التعالى عليها بالوجه البشوش ، فغايته هى استقطاب المثقفين ، فى البداية بالإحسان إليهم ، يوفر لهم عملاً ، ودخلا قليلا ، ويظلون أبدا بحاجة إليه ، عن طريق المكافآت . ثم عليهم أن يثبتوا ولاءهم لشخصه . يحملون حقيبته عنه حين يرونه ، أوينقلون إليه أخبار الوسط الثقافى ، أو يقفون له احتراما إثر حضوره ، أو ينوبون عنه فى الرد على معارضيه وخصومه ، يكيلون لهم شتى الاتهامات باللون الأحمر تارة ، وبالانحراف تارة ، وربما بالخيانة تارة أخرى ، مصفقين له فى الندوات ، مستخدمين عضلاتهم وأصواتهم المرتفعة تارة أخرى .

كن كما أهوى .. واتبعني

كان الشاب خدوما ، لمن يطلب مكرمته ، ممن أصابتهم حرفة الأدب ، أتاح مرة لشاعر أكثر من مكافأة ، فى أكثر من مكان من الأجهزة الثقافية، نظير عمل محدد ، أن يتواجد فى كل ليلة بناد معين من أنديته ، ومهمته أن يسمع مايدور ، ويرى مايحدث بين الشباب المثقفين بصالة النادى ، لم يقل له ذلك . قال له فقط :

– أحب أن أراك مساء كل يوم بصالة النادى .

ولم يكن حقا يراه ، إلا حين يريد الآخر مقابلته ، ويغلق وراءه الباب ،

فقد كان من عادته ، « الضابط الشاب » ، أن يصعد سلما خاصا به فى النادى ، ويدخل غرفته ، كرجل دولة . وعلى الكل أن يسعى إليه .

وأتاح مرة لكاتب قصة شاب متمرد ، ولا انتماء سياسى له ، جاء من « عروس البحر » يطلب عملا بالثقافة ، ولا مؤهل له . كان بائع صحف متفتح القلب والعقل ، جرته قراءته للصحف وللكتب ، مثلنا جميعا ، لكتابة قصص « لامعقولة » ، لم يرتدْ مثلها من كتاب العرب أحد قبله ،

وكانت قد صدرت له مجموعة قصص « لامعقولة » ، ورحب به الضابط الشاب ، وأوكل له عملا بمكتبه ، فى جهاز من أجهزته الثقافية ، لكن القصاص الشاب لم ينجح فى أن يكون موظفا صغيرا ، يتجمل بحسن المظهر ، وذلاقة اللسان ، وإظهار الطاعة ، فاصطدم به بكلمات عنيفة ، وعاد إلى « عروس البحر » ، ربما ليبيع الصحف مرة أخرى . قال لى على شاطئ « عروس البحر » :

– قلت له .. وقلت له .. لست من حملة الحقائب الذين يحيطون به ، ويعيشون ساعات يومهم لأجل مرضاته . أنا لم أولد عبداً لأحد .

وكانت تلك آفته فى الاستقطاب . يريد أتباعا ، ولايريد رفاقا وأخوة ، يريد « جنودا » له عليهم الأمر ، وعليهم السمع والطاعة .

كانت الحياة الثقافية الشابة منقسمة آنذاك : ثمة كتاب لهم انتماءاتهم السياسية التى تتجاوز واقع الثورة نفسه . وبينهم كان كتاب حقيقيون ، لهم قراؤهم ونقادهم أيضا ، ويعارضونه ، وكتاب الطبقة الثالثة والرابعة ونازلا يتبعونه . وكانت لكل منهما خنادقه فى الحياة العامة . وكان الشاب يائسا من مجموعات المنتمين ، لكنه كان دائم اللقاء لهم ، والإحسان إلى من يطلب إحسانه منهم ، ووضع عينيه على فئة من الكتاب ، خارج

الخندقين وهو يعلم انهم بأقلامهم ، وفكرهم ، فى خندق هؤلاء الكتاب المنتمين . وبدأ محاولة يائسة لاستقطابهم ، وكنت واحدا منهم .

تجربة صغيرة

قيل لى ،على لسان صديق كاتب ، إنه يريد مقابلتى . وذهبت معه إليه، فى غرفته الليلية بناديه . وجدته جالسا إلى صدر منضدة اجتماعات محدودة المقاعد ومعه عدد من حملة الحقائب . كانت المنضدة مكسوة بالجوخ الأخضر مثل مكتبه . ولامنى لأننى لست عضوا فى الناديين اللذين يشرف عليهما ، مع أننى كاتب ، وذكر لى أنه قد وقع لى استمارتى عضوية بالناديين . وقبل أن يسمع رأيى قذف بى فى التجربة . كانت ثمة مجلة لأحد الناديين ، يريد مشاركتى فى إحيائها ، مع صديقى الكاتب . وكنت وكان الكل يعلم مدى فشلها التحريرى ، إلى درجة أنها لاتوزع إلا ستين نسخة بالسوق ، برغم ماينفق عليها من أموال تستقطع من بنود ميزانيات أجهزة ثقافية رسمية أخرى .

وكان ينظر إلى ، بشك مستريب ، لكنه كان ، فيما يبدو خاضعا لإرادة رجل الدولة طلبت شرطا واحدا لنفسى ، ولصديقى الكاتب ألا تنشر مادة بالمجلة دون موافقة منى ومن صديقى . وذلك يعنى أن يرفع هو ، الضابط الشاب ، ومعه رئيس تحرير المجلة يده عن التحرير . فلنا اختيار المادة للنشر ، وليس لهما حق الإجازة للنشر . ولدهشتى قبل الشاب ذلك ، وأبدى ودا مفاجئا لى ، وهو يصافحنى قائلا كأنه يضع ذيلا ثانويا للأمر كله :

– سيكون معك ، أنت وصديقك ، فلان ، وفلان ، وفلان ، ستكون مهمتهم معكما هى الإشراف على التنفيذ والطبع .

كانت المهمة غير مأجورة . لكن الرغبة فى إحياء مجلة ، كانت فى نفسى كاسحة . ولم استرح لحملة الحقائب الذين ذكرهم فاقترحت اسمين آخرين ، أعرف قيمتهما ، كانا عونين له فى جهازين خطيرين للثقافة ، فقال لى :

– لهما مهام أخرى معى ، وهما مثلك وصاحبك ، لا وقت لديهما للمطبعة .

بدأنا اجتماعات الإعداد للمجلة فى عهدها الجديد ، مع عدد من الكتاب الشبان . واتصلنا بالأصدقاء . وبالفعل نجحنا فى إصدار مجلة ناجحة المادة والتحرير ، برغم أن اسمها وقد مات لم يتغير . كنا نجتمع فى مكتب رئيس التحرير ، الوثير ، بمقاعده الجلدية ، حتى حدث أمر لاينسى .

وفدنا لاجتماع ذات ليلة قبل حضوره ، فوجدنا باب غرفته بالنادى مغلقا فى وجوهنا . طلبنا من « ساعى » المكان ، فتحه فأخبرنا أن المكتب خاص برئيس التحرير ، وأن هذه هى أوامره . استبد بى الغيظ ، وراح صديقى الكاتب ، يهدئ من ثائرتى ، وجلسنا فى انتظار رئيس التحرير بالصالة . ولكنه جاء ، ولم يلتفت إلينا ، ودخل مكتبه ، وأغلق وراءه بابه . ذهبت إليه ، وسألته عن السبب ، فقال منتفخا بزهو تركى :

– المكتب لرئيس التحرير . ولا يجلس فيه أبناء الفلاحين .

ثرت فى وجهه ، وأعلنت انسحابى من المجلة ، ولحق بى حملة الحقائب فى الطريق لإثنائى عن قرارى ، وليسمعوا منى مايسرهم فى الضابط الشاب وفى رئيس التحرير ، وينقلوه إليهما ، ولم أتحسَّب فى التعبير عن رأيى .

كان السبب فى هذا التغير واضحا لى من الشاب ، حمل حملة الحقائب موضوعا كتب عليه : « ينشر » ، وذيله بتوقيعه . ومن رئيس التحرير ، حول موضوع آخر للنشر ، وكان أمر النشر موقعا . وقرأت وصديقى الكاتب الموضوعين ، ورفضنا نشرهما لضعفهما الواضح ، فنشرهما يعنى بداية انهيار المجلة ، ويعنى التنازل ، والتنازل يجر تنازلا ، وكأن الغاية هى مجرد استقطابى وصاحبى ، وضمنا إلى الزمرة .

وكان فراقا ، لم أحزن عليه ، دام عشر سنوات ، فيما أذكره .

وفد أدبي

دعانى الشاب بعد سنين ، لأكون عضوا فى وفد من الوفود الأدبية ، لعاصمة أوربية ، وقبلت الدعوة . قابلته بمكتبه . كان بشوشا كعادته ، وكأن شيئا لم يحدث بيننا قبل عشر سنين مضت ، وكأن كلمة واحدة لم تنقل إليه يومها . زودنى بالأوراق الرسمية اللازمة لتأشيرة الخروج آنذاك. وقبل أن أغادر مكتبه ، أرانى ، من سلة المهملات ، ورقة بها أسماء أكثر من عشرين كاتبا . كانت الورقة ممزقة نصفين وقال لى :

– أتعرف صديقك فلان « الأحمر » ؟

قلت له ضاحكاً :

– نعم . أعرفه . وأشك فى أنه حقا « أحمر » .

قال الشاب :

– كان هنا قبل قليل . وقدم لى هذه الورقة ، قائلا إن بها أسماء الكتاب الحمر وطلب أن أقدمها لأجهزة الأمن ، لم ألق عليها حتى نظرة . ومزقتها كما ترى ، وألقيت بها فى هذه « السلة » ثم قال لى :

- ستفهم حقيقة هؤلاء الناس يوما .

لم أكذبه . ولم أشك فى صحة ماحدث . ولم أسأل من كتب الورقة . ولم أقل له - للشاب - لم تحتفظ بها إذن ، فى .. سلة المهملات ؟!. لكن الموقف أحدث فى قلبى وجعا .

كان بين أعضاء الوفد ، وكنا خمسة ، واحد فقط من حملة الحقائب ، يحمل اسما أدبيا ، كأسماء النجوم ، غير اسمه الحقيقى . ويقال إنه غيرَّ اسمه ، بعد تورطه فى فضيحة مالية ، من عمله ، فتقرب للضابط الشاب بالكتابة عن أبيه ، فالحقة يعمل ، مع حملة الحقائب .

أثناء الرحلة بين مدن ذلك البلد الأوربى ، ولم يكن أحد من أعضاء الوفد، فيما نعرف بعضنا البعض ، يعرف لغة أهل البلد ، كان الحوار الأدبى ، وغير الأدبى ، يتم بواسطة مترجم . وحدث أن مسؤولا بهذا البلد، كان يتكلم بلغة بلده مع المترجم . نحوا من خمس دقائق .

ولاحظ ، ولاحظنا معه ، الأذن المرهفة لحامل الحقائب ، والابتسامة الصفراء لما يسمعه من المسؤول ، فوجم المسؤول وقطع حواره مع المترجم . أدركنا أن رفيقنا « حامل الحقائب » يعرف لغة البلد ، وأنه من بيننا يسمع . ولا يتكلم ، ويرقب ، ولا يعلق .

وهمس لى المترجم فيما بعد ، بأن صاحبنا هذا يعرف الألمانية ، ودرسها قبل ذلك ثمانى سنوات بمصر ، ولم يكن قد مر سوى يوم على ماحدث ، وتأكدت والصحبة أنه سينقل كل شئ إلى الضابط الشاب ، وأن أحدا منا لن يكون مطالبا بتقرير عن الرحلة ، إثر العودة ، وأن للبلد للأوروبى وسائله للمعرفة ، من الأرشيف ، وأن علينا أن نحترس . فى الغربة . وفى الوطن .

اللقاء الأخير

ضاق صدرى بعملى كمدرس ، شحذت ذهنى ، وكتبت طلبا للشاب ، ووسطت صديقا ، كان يعمل ساعدا أيمن له ، فى احد اجهزته ، وذهبت لمقابلته ، فى أهم مكتب لديه بين مكاتبه . قدمت له طلبى ، وطلبت موافقته لنقلى . وكنت أعلم أن فى وسعه ذلك بجرة قلم . فوضع الطلب جانبا ، ونظر إلىّ وقال بوجه بشوش :

– كيف ، وأنت لست معنا .

قلت له :

– أعرف فقط ، أننى كاتب ، وأن من حقى أن أحصل على عمل يتناسب مع عملى ككاتب . والعمل ليس غايتى . الكاتب فىّ هو ماأحرص عليه .

مال نحوى ، وقال ضاحكا ، ولأول مرة يكون صريحا :

– اكتب أولاً فى مجلة « كذا » .

وكان يرأس تحريرها أحد حملة الحقائب . قلت له :

– لا أقبل ذلك . ليس ذلك موقفا من المجلة ، ولا من الدولة ، ولا من الثورة ، ولا منك . وإلا لما جئت إليك . هذه المجلة تتسهل فى النشر لمن ليسوا كتابا ، ونشرى معهم ، فى مجلة واحدة ، سيسئ إلىّ . أنا يشرفنى النشر مع الكتاب الذين أحترم أقلامهم ، وأحترم فيهم كونهم أصحاب رسالة .

أخذ يغرينى بأن يدفع أضعاف مايأخذه أى أحد من الكتبة ، وأن ينقلنى ويرقينى إلى المنصب الذى أختاره .

اتخذت قرارى بينى وبين نفسى فى تلك اللحظة ، أن أبقى مدرسا إلى النهاية ، فهأنذا استدرج لأصبح واحدا من حملة الحقائب ، ويجفونى قلمى. وغادرت مكتبه الفاخر ، قائلا له : آسف .

وسط الطريق

حدثنى فيما بعد ، صديق شاعر . ذكر لى أنه قابل الشاب فى حفل بسفارة ، فى عيد قومى لبلادها . أخذه جانبا وقال له ضاحكا :

- إلى متى ستظل تسير أنت ، وأصدقاؤك : فلان ، وفلان وفلان ، فى وسط الطريق ؟

وفسر لى صديقى الشاعر ، مادار بينهما . ثمة كتاب يمشون على الطوار الأيسر ، ويهتمون ببعضهم البعض ، وكتاب يمشون على الطوار الأيمن ، ويهتمون ببعضهم البعض . وآخرون ، مثلنا ، يمشون فى وسط الطريق ، لايهتم بهم أحد من أهل الطوار الأيمن . ولا من أهل الطوار الأيسر .

وضحكت وصديقى الشاعر . فصاحب القلم انتماؤه فى قلمه مع مايعتقد أنه الصواب والحق ، والفن الجديد هو بالضرورة مع التقدم ، والكاتب الحق هو من يقدر أبدا على قول : لا .فى أى وقت . والانتماء - أى انتماء - يحرمه من هذه القدرة الحرية . والانتماءات تنسى فى التاريخ إلا أن تكون شائنة ، ولايبقى سوى الفن الجيد .

ذو الاقنعة السبعة

رجل دولة كان ، أجل . واضعف من دوره ، حرصه الدائم ، على تسخير ماتحت يده من أجهزة ، لخدمة نفسه ككاتب ، وأراد بها دائما أن

يضع كل المثقفين فى خدمة واحدة ، فى سلة واحدة ، يقدمها للدولة : أبواقاً وإعلاما ، مثلما يفعل هو ، ويشرط واحد أن يسبحوا بحمده ، ويمجدوا ثمرات قلمه ، طوعا أو كرها .

فى كل صباح ، فى الثامنة تماما ، يغادر عربته ، ويصعد إلى مكتبه بأحد نواديه ، ويظل ساعتين يكتب دون تردد للحظة (رأيت مسوداته على مكتبه) دون شطب كلمة واحدة . فى العاشرة ينزع قناع الكاتب ، ويرتدى قناعا آخر ، ويظل هكذا كل ساعتين ، يعبر به سائقه الطرق والكبارى من مكتب إلى مكتب ، والأقنعة تتغير .

كانت كتبه تتوالى فى السوق ، بأغلفة ملونة ، وصور نسوية ، بعضها مجرد خطوط على أرضية ذهبية ، وتتحول أفلاما ، ولم يكن يظهر فيها خطأ لغوى واحد ، وقد رأيت بنفسى كثرة أخطائه النحوية والإملائية فى مسوداته . وقيل لى يوما ، إن أحد أخواله أستاذ لغة،، بكلية جامعية ، وأنه يراجع له ماكتبه ، قبل أن يدفع به إلى دار النشر .

ومع موقفه الواضح مع التقدم فى إطار الثورة وشعاراتها ومقولاتها ، وضد التقدم خارج الثورة بين المثقفين ، فقد دهشت لنيله جائزة دولية لاأعرف أنها تعطى لمثله .

ومع إلحاحه الدائم على النقاد كى يكتبوا عنه ولو بالشتيمة ! فلم يطق صبرا حين تعرض ناقد للكتابة عنه بحرية وجرأة ، فتوعده بالويل والثبور ، وعظائم الأمور ، حتى وهو فى عمل بعيد عن التبعية له .

وتحدث الناس عن خوف الناقد ونهابه إليه مسترضيا ومعتذرا أكثر من مرة ، وقبوله ، أكثر من مرة ، العمل معه ، فى مجلاته ، متنازلا عن ذات نفسه ، قابلا أن تغلق المجلات على يديه واحدة بعد الأخرى . ففى ظل

الضغوط والقيود ، والرغبة فى وضع الكل فى سلة واحدة ، والجيد منها مع الردئ ، وفرار الجيد من الردئ ، لايمكن أن تستمر مجلة فى الصدور، أو ينجح معها تحرير .

ومن عهد ، إلى عهد ، لم ينس قط ، أنه رجل الدولة فى الثقافة ، حتى عندما ضرب عهد بعهد . كان مع الثورة فى تقدميتها فى عهد ، ثم كان معها فى تراجعاتها فى عهد آخر ، سوطا فى يد سيد الثورة . وكانت النتيجة المحتومة أن يذهب ضحية أقنعته السبعة ، وتنقله كالبهلوان ، من حبل إلى حبل ، فوق ارتفاعات شاهقة .

مازلت أذكر له موقفا غريبا ، فبرغم كونه رجل دولة وثورة فى الثقافة، رأيته فى مقرأهم أجهزته ، واقفا على السلم بالساحة ينتظر ، وكنت ذاهبا لزيارة صديق ، وجاءت سيارة فارهة ، تحمل فلان (باشا سابقا) ، وأسرع الشاب ، يفتح له باب السيارة قائلا بانحناء :- تفضل ياباشا .

عجل جسد له خوار

الغبي

جمعتنا أيام المحنة ، إثر حرب الأيام السود الحزينة ، أيام يونيو عام ١٩٦٧ ، فى بيت صديق كويتى . كنا من الأسى والإحباط فى دوار داخلى عميق ، نتحاور وكأننا نهذى ، ونضحك وكأننا نبكى ، ونجرع الماء ولانرتوى ، ونأكل وكأننا نأكل آخر زادنا ، ولم يعد لنا من همٍّ ، سوى النمّ، فى أيام اللقاء الأسبوعية ، وكأننا حين شعرنا بالعجز والقهر رحنا نأكل أنفسنا ، ونأكل لحوم مواطنينا الأحياء والموتى . كنا ذوى مشارب مختلفة الطباع والمنازع ، بيننا كان شاعر كبير راحل ، وشاعر يمنى يجوب البلاد ، ويلقى العباد ، وشاعر نجم صاعد ، دافئ القلب والنظرة والصوت ، هو رابطة العقد ، وشاعر نديم يحكى فى المجالس ذكريات السنين ، ويروى أشعارا لشعراء بؤساء ، وظرفاء ، لا تقبل النشر فى مجلة أوديوان .

جاءت سيرة مخفى الذكر « العجل الجسد ذو الخوار » . فقال الشاعر الكبير الراحل :

– هـــذا الغبى ، كيف صار ذا حول وصول فى مصر المضحكات المبكيات ؟

سألته :

– الغبى ، إنه أصدق وصف . أتعرفه ؟

قال الشاعر الكبير الراحل :

– نعم . كنا نجتمع فى بيت أبيه . كان أبوه يقيم صالونا أدبيا أسبوعيا لنا ، وكنا صفوة من شباب الشعراء والناثرين ، غايتنا شرب العدس بالمرق ، وقول الشعر بلاحياء أوملق ، والمنادمة والمسامرة إلى أن يؤذن ديك الصباح ، وكان هذا الغبى ، مثل عجل ذهبى ، يجلس عند الباب مفتوح الفم ، زائغ النظرة ، ينظر ويسمع ، وإذ يتكلم يتهته ، والقول يتزاحم فى سقف فمه ، كأنه يلوك طعاما لايمضغ ، ولا يبلع ، ولا يلفظ .

وكان أبوه ، الكبير المقام ، يشعر بالحزن ، إذيراه ، وإذ يسمعه ، ويرثى لنفسه فى سره لأنه سيكون ذكره « العطر » فى الدنيا من بعده ، وقلت لأبيه يوما فى لحظة بوح وصدق : هذا لأنكم أسرة تتزوج من بعضها البعض ، ولم تباعدوا فى الزواج ، كما أمر سيد الخلق ، وكما يقول علماء الوراثة ، وما أظنك إلا مزوجه من قريبة له ، فيكون الخلف أسوأ من السلف ، وتصبح جدا لمعتوه ، مثلما أنت أب لغبىٍّ . ولولا أننا كنا على فراق عند الباب ، لحدث ما لاأحسد عليه ، وطردت شد طردة ، من قصر الأب الكبير المقام .

دعوة على طعام :

روى لى صديق قصصى شاب ، كان على صلة بالعجل الجسد ذى الخوار ، وكان صديقى الطيب ، وهذه آفته بين آفات زماننا ، مبهورا بغنائه الباهظ ، وصورة الفيلا التى يصيف بها على ضفاف بحيرة فى الجبال ،

بعيدا وراء البحار ، مبهورا بطوله وعرضه ، ووجهه الدموى ، وثقته المتعالية التى تحد بنفسه ، روى لى أنه دعاه يوما إلى طعام فى بيته ، إيثاراً له ، وإعجابا بقلمه ، ولأنه فيما يبدو ابن ناس ، لاشك انهم كانوا من المماليك .

وذهب الصديق القصصى الشاب فى الموعد المحدد ، فراعه مدخل البيت الموروث ، واستقبله على الباب نوبى أنيق وسيم ، وأدخله إلى غرفة عتيقة الأثاث والرّياش ، مزدانة بلوحات موروثة لمناظر طبيعية ، بينها لوحة هذه الڤيلا التى يملكها على ضفاف بحيرة .

وجاء العجل الجسد ذو الخوار ، يترنح فى روبه الذهبى ، الفضى ، المفصل خصيصا على قده وحجمه ، وصافحه بأطراف أصابعه ، وجلس على مبعدة ، وأخذا يتحدثان ، حتى جاء السفرجى ، فتبعه القصصى الشاب إلى المائدة ، وجلسا معا ، يأكلان ما لذ وطاب من لحوم بيضاء وحمراء ، وتفاح وأعناب ، وفى مقدمتها كان العدس الشهير ، المطهو بالمرق ، وأحد عشر خادما نوبيا مصطفين على الجانبين ، لخدمة الاثنين، ولم يعتذر العجل الجسد ذو الخوار ، عن عدم حضور زوجه ، أو أحد من بنيه ، لمشاركتهما الطعام . وفهم الصديق القصصى الشاب أنه فى النهاية، عنده ، وعند أهل بيته من أبناء الناس .

إثر الطعام ، تبعه الصديق الشاب ، إلى غرفة التدخين ، ولم يكن العجل الجسد ذو الخوار من المدخنين ، وأثناء رشف أقداح القهوة ، التى أعدت من البن والمستكة ، والحبهان والعنبر ، قال العجل الجسد ذو الخوار :

– أنت تعرف يا ابن الناس ازدحام وقتى ، وانشغالى بأمور الأهل والخدم والحياة العامة التى فرضت علىّ ، وضيق وقتى عن كتابة المزيد من

القصص ، وما أريده منك بالتحديد ، هو أن تكون لى ،كابن ، بمثابة سكرتير . أحكى لك القصة ، فلن تتعب فى الحصول على موضوعها ، وعليك أن تصبها فى أسلوبك الجميل ، ولست أريد عائدها ، فى النشر بمجلة ، أوصحيفة ، فهو حق خالص لك . هى قصتى ، وعليها اسمى ، ولك عن تعبك الثمن ، ولا تنس أنك ستكتسب خبرة بفضلى ، وسوف أتيح لك الفرص لنشر قصصك أنت ، وأقدمك إلى نجوم المجتمع ، على أن يظل ما قلته لك الآن ، وما سوف تعاوننى فيه ، سراً بيننا .

قال لى الصديق القصصى الشاب :

– اعتذرت لهذا العجل ، عن أداء هذه المهمة ، لضيق وقتى أنا الآخر ، وحاجتى إلى وقتى لكتابة قصصى أنا ، خاصة أن رؤيتى لموضوعات القصص تختلف عما يريده هو لها من رؤية .

عندئذ صاح به العجل الجسد ذو الخوار :

– رؤية ؟ أتتكلم عن رؤية ؟ أنت إذن من هؤلاء « الحمر » المستترين ؟

ونادى العجل الجسد ذو الخوار ، بأحد النوبيين ، قائلا له :

– أره الطريق إلى الباب .

وظل جالسا . وخرج الصديق القصصى الشاب . وقال لى :

– حقا لم أشعر بحرج . ضحكت . وحدثت نفسى أن الأغبياء فى هذه الدنيا ، هم أكثر الناس خبثا ولؤما ، ولفاً ودورانا ، ورغبة فى التواجد فى هذه الدنيا ، حتى بعرق غيرهم ، وأن الأذكياء ، ليسوا بحاجة إلى شئ من هذه كله .

كان من عادة صديقى القصصى الشاب ، أن يحوّل أبدا ماهو خاص ،

إلى ماهو عام ، أن يفلسفه ويبرره . ويحوله إلى قضية تجريدية ، لاتغنى فتيلا فى الصراع مع أوباش الناس . وشعرت نحوه هو الاخر بالإشفاق . وأدركت أنه بات منذ ذلك اليوم ، فى خوف من أن يلحقه أذى من العجل الجسد . ألم يقل له متوعدا : أنت إذن من هؤلاء « الحمر » المستترين ؟ .

مجد المصادفة :

حصل مخرج أحمق ، بعد ليلة حافلة بالطعام ، ولزوم الطعام ، فى بيت العجل الجسد ذى الخوار على مظروف مغلق ، به ورق أخضر هدية ، وعلى عقد بإخراج قصة لمضيفه ، ووعد بتدبير منتج لفيلمه الجديد ، وكاتب صاعد يُعِدله السيناريو اللازم .

وحمل المخرج السيناريو ، إلى مؤلف أغان ، ليضع الأغانى الفولكلورية للفيلم ، لكن مؤلف الأغانى ، لم يعجبه السيناريو ، وإن أعجبته القصة كموضوع ، وأصر على أن يجرى قلمه فى مشاهد السيناريو ، خاصة فى حواره ، وقبل المخرج ، والمنتج ، والعجل الجسد ذو الخوار ، وأخرج الفيلم، برؤية جديدة هى رؤية مؤلف الأغانى ، التى جسدتها الأغنيات الجماعية ، وحوار الأبطال ، فى غفلة من العجل الجسد ذى الخوار .

وجاء يوم العرض الخاص لمشاهدة الفيلم ، وجلس مؤلف الأغانى الشاب بجانب العجل الجسد ذى الخوار . وأثناء العرض ، والمشاهد تترى ، كان العجل الجسد ذو الخوار يلكز بمرفقه مؤلف الأغانى بين لحظة وأخرى ، قائلا فى هدير مذعور مكتوم :

– أنا قلت ذلك ؟ أنا كتبت ذلك ؟ كان ينبغى أن أعترض قبل الإنتاج عليك. ستودى بى فى داهية ، وبنفسك . ستجرنى معك ، أنا برئ من هذا الفيلم ، هذه رؤية « حمراء » « مشبوهة » . ستوقعنى فى نقمة

« العسكر » .

لكن مفاجأة العرض الخاص ، كانت حين دوّى التصفيق إعجابا بالفيلم ، حتى من أعضاء الرقابة المشاهدين ، ووقف العجل الجسد ذو الخوار حائرا كالتائه ، يتلقى تحايا وثناء المهنئين بفيلمه العظيم . ومشى بينهم إلى خارج صالة العرض يترنح خوفا ونشوة يحدث نفسه : ماذا سوف يفعلون بى هؤلاء « العسكر » ؟ وماذا يغنينى إعجاب الناس لو غضبوا على ؟ وتمنى أن تعترض الرقابة على الفيلم ، فلايصل إلى قاعات العرض على الجماهير ، ويوقف الفيلم وينجو هو والمنتج والمخرج وليذهب مؤلف الأغانى « الأحمر » إلى الجحيم .

وتحققت أمنية العجل الجسد ذى الخوار . اعترضت الرقابة على الفيلم. ولزم هو الصمت . وعارض المخرج والمنتج القرار ، ولزم هو الصمت. أكد لنفسه أن الفيلم ، بعد المشاهدة السياسية ، لن يجاز ، وهنأ نفسه لأنه سيصبح قضية عامة . فهو أمام الناس قد أدان الاستبداد ، والعسكر ، وسينسب إليه ذلك الفضل ، لا إلى مؤلف الأغانى ، ولا إلى السيناريست ، ولا إلى المخرج ، فالقصة قصته ، والسلطة الغاشمة وقفت ضدها .

لكن ما حدث ، كان عجيبا ومدهشا ، شهد قائد العسكر مع أعوانه الفيلم ويبهره راقته الأغانى وأعجبه الحوار . وقال لمن حوله فى ثقة وإخلاص :

– اعرضوا الفيلم . لو كنا كما يقول الفيلم ، فنحن أولاد (كذا) ، ونستحق التشهير بنا .

وعرض الفيلم ، ونجح الفيلم ، ونسى الناس المخرج ، ومؤلف الأغانى ، وصار الفيلم فيلم العجل الجسد ذى الخوار ، ومشى يختال بنفسه بين

الناس ، ولم يخجل ويذكر بالخير ، قائد العسكر ، بعد موته ، فراح يتغنى، ويكتب فى الصحف والمجلات ، ويتشدق فى المجالس ، بأنه وقف ضد الاستبداد فى العهد الغابر ، وأن شجاعته لم يقم بمثلها كاتب ، فى وجه الاستبداد ، ولم يكفّ عن القول ، إلاحين قال له كاتب مسرح قديم :

– كفى . نحن نعرف من كتب سيناريو الفيلم وأغانيه . لقد ارتكب جريمة حين جعل « من الفسيخ شربات » . لقد قرأت قصتك ، وشاهدت الفيلم ، وليس لك من قصة الفيلم سوى اسمك . وبليتك الكبرى ياصاحبى حين يكتب أحد يوما الحقيقة ، ولسوف تعيش بقية عمرك فى « خوف » من هذا اليوم .

معي سيف المعز و ذهبه :

اقترب يوم الانتخاب ، لنصف أعضاء مجلس إدارة « الجمعية » التى يرأسها العجل الجسد ذو الخوار . وكانت القرعة الانتخابية ، قد أسقطت فى المجلس عضوية نصف الأعضاء بين عامين اثنين ، وبقى النصف الآخر ليتم « بالحظ » عامين آخرين . ومن « سوء حظ » العجل الجسد ، أن اسمه كان بين من سقطت عضويتهم ، فرشح نفسه للعضوية ، من جديد ، لكى يعود رئيسا للجمعية مرة أخرى .

وجمع العجل الجسد ذو الخوار أركان حربه الأربعة ، وهم حرسه الخاص ، وجوقته الشخصية بين الناس ، فى عموم برّ مصر ، وحملة حقائبه السمسونايت : السوداء ، والبنية ، والرمادية ، والذين لايسمح لأحدهم بأى كرافتة بها نقطة حمراء ، كان بينهم حارسه الأثير لديه ، والذى أغناه بالمال ، وبالوظيفة ، وبالسحب على المكشوف من رأس مال الجمعية ، وصيرة كاتبا خاصا لقصصه هو ، وأنعم عليه بحق أن يكتب

قصصا ينسبها لنفسه ويرجع أنه كان من قبل حارسا فى « شادر » لمخزن الأخشاب . قال له حارس الشادر السابق :

– هذه أول مرة ياباشا ، نجرى فيها انتخابات ، بعد رحيل « يونس بك» عنا ، وتركه لنا هذه التركة الثقيلة .

فشخط فيه العجل الجسد ، وقال :

– نفعل مثلما كان يفعل يرحمه الله . لقد دبرت لهذا اليوم من قبل . ألم نضم أعضاء جددا ، ليس بينهم « أحمر » واحد ، أويه شبهة « حمرة ». إلى جمعيتنا قبل عام ؟

قال حارس الشادر السابق :

– بلى .

قال العجل الجسد ذو الخوار :

– ألست بحاجة إلى نظارة جديدة مثلا ؟

لم يفهم حارس الشادر السابق ، وقال :

– نظارتى سليمة والحمد لله .

فقال له العجل الجسد ذو الخوار :

– ياغبى . فلنقل إنك بحاجة إلى نظارة ، لزوم العمل بالجمعية ، وزملاؤك هؤلاء أحدهم بحاجة إلى سيارة لزوم العمل أيضا ، والثانى إلى مكتب فى بيته لنفس الغرض ، والرابع إلى أى شئ يخطر بباله ، يتزوج مثلا ، زواجا ثانيا ، تأخذون المال ، وتجلبون به الأعضاء الجدد بالسيارات وتنزلونهم فى فندق ، وتطعمونهم ، وتسددون لهم اشتراكاتهم فى

الدفاتر بتاريخ سابق ، وأمام كل هذه النعم والمكرمات ، يصوتون معنا .

ومن حسن حظنا أن خصومنا الذين تسللوا إلى العضوية العمومية ، بالجمعية قليلو العدد حتى الآن ، وأكثرهم لايحضر يوم الانتخاب للإدلاء بصوته ، والذين رشحوا أنفسهم من هؤلاء الخصوم سيجدون أنفسهم راسبين فى الانتخاب لامحالة . أفهمت أنت وهم ؟

قال حارس الشادر السابق :

– وهذا التشويش الذى سيحدثونه بالجمعية يوم الانتخاب .

فقال العجل الجسد ذو الخوار :

– هؤلاء المشوشون ، ذوو « الكلمات المسمومة » ، دعهم لى ، فأنا كفيل بهم ، حتى لو كانوا جيشا عرمرما . سيفى « الأبيض » فى وجه كلماتهم « الحمراء » . ومال الجمعية تحت يدى ، وبيدى وحدها ، ومعى سيف المعزّ وذهبه .

دعوة .. لمحاضرة :

حدثنى صديق ناقد ، كان يرأس مركزا من مراكزنا الثقافية ، فى عاصمة أوربية ، أنه دعا مهندسا مصريا شهيرا ، ليحاضر المستشرقين والأجانب عن العمارة الشرقية ، وخضع (وكان هذا هو خطؤه حسب قوله) لرغبة دبيلوماسى فى دعوة العجل الجسد ذى الخوار ، ليشارك المهندس المصرى فى هذه الدعوة . وكانت الدعوة موجهة إلى المدعو وزوجته .

وذهب العجل الجسد مع زوجته ، وابنته ، وذهب المهندس المصرى وحيدا ، فليس فى عرف الدعوات دعوة الأبناء ، وأصر العجل الجسد على

أن تكون الدعوة موجهة أيضا الى ابنته . ووجد الصديق الناقد حلاً لها بجعلها سكرتيرة للمهندس المصرى ، وقبل العجل الجسد ذلك الحل على مضض .

وكان من المقرر أن تكون محاضرة المدعو بلغة أجنبية حية ، يفهم عنها الحاضرون مايقوله المدعوّ . لكن العجل الجسد أصر على أن تكون محاضرته بالعربية ، فطلب منه الصديق أن يغير إصراره هذا ، لأنه لن يفهم عنه محاضرته أحد سواه ، وسوى المهندس المصرى ، وليست هذه هى الغاية من الدعوة . فقال العجل الجسد بتعال للصديق الناقد :

– أنت تعرف هذه اللغات الأجنبية ، سأتكلم أنا بالعربية ، وتقوم أنت لى بالترجمة الفورية . فغضب الصديق الناقد ، ورفض قائلا :

– إنك تتجاوز حدودك معى ، ولن أتجاوز حدود عملى كرئيس لهذا المركز الثقافى . فتصرف كما تحب . اطلب من قريبك الديبلوماسى فى هذه العاصمة الأجنبية أن يحل لك مشكلتك .

واتصل العجل الجسد بقريبه الديبلوماسى ، وطلب منه بجرأة أن « يأمر » الصديق الناقد ، رئيس المركز بالترجمة لما يقوله . فقال له قريبه :

– ليس ذلك من سلطتى معه ، ولا من حقى . وليس معى أحد يقوم لك بهذه المهمة .

ويرطم العجل الجسد ذو الخوار غاضبا ، لأن أحدا لايريد أن يفهم مكانته ككاتب كبير ، واضطر إلى إلقاء محاضرته بالعربية لغير مستمع .

ودعا المهندس المصرى ، الصديق الناقد ، والعجل الجسد ، وزوجته ،

وابنته لدعوة على غداء احتفالا بالمناسبة ، وبفوزه بجائزة كبيرة من بين عدد كبير من المهندسين الأجانب .

وعلى المائدة أثير ، بين ما أثير من حديث ، حوار حول « اتفاقية كامب ديفيد » وآثارها على الوضع الثقافى والحياة الثقافية المصرية والعربية فى الخارج . وذكر الناقد المصرى رأيه المتحفظ كعالم . قال :

– أنا رجل عالم ، وصلتى بالسياسة صلة علمية . وتقييمى لهذه الاتفاقية أنها تمت فى وقت غير مناسب مصريا وعربيا ، وأنها لم تكن اتفاقية سلام عادل ، وشامل ، يضم كافة الأطراف المتنازعة ، ولذلك فقد سببت حرجا شديدا للمسئولين عن الثقافة العربية فى الخارج ، من العلماء المصريين ، والعاملين فى المراكز الثقافية ، فالعرب هنا ، فى هذه العاصمة مثلا ، يتحرّجون من القدوم إلى المركز ، ومقابلة المسئولين به ، بسبب موقف دولهم من اتفاقية كامب ديفيد ، وتمثيلنا نحن لمصر التى كانت أحد طرفيها ، وحين يتجرأ أحدهم ، ويأتى لمقابلتى يأتى سراً ، وليلا ، حتى لايراه أحد من أهل بلده ، ولا يؤخذ عليه قدومه إلى مركزنا العربى المصرى .. وفى اعتقادى أن هذه الاتفاقية أضرت مصر ، وسببت لها ولنا حرجا شديدا مع العرب .

– عندئذ ثار العجل الجسد ذو الخوار ، هبَّ واقفا ، غاضبا ، وقال بهياج :

– إذن فأنت من هؤلاء « الحمر » الذين تسللوا إلى مواقع الثقافة ، حتى فى الخارج .

والتفت إلى ثورته الهائجة الحاضرون بالمطعم من الأجانب ، وأخذوا يتابعون المشهد فى دهشة ، ويسمعون كلاما غاضبا عنيفا لا يفهمونه .

فقال الصديق الناقد للعجل الجسد بهدوء بالغ :

– اجلس ، واحترم المكان ومن فيه . حدثتك كعالم عن رأيى . اجلس وتناقش وأدر حوارا معى ، بدلا من هذا التعصب ، وتلك الثورة ، ولقد قلت رأيى هذا لرئيس بلدنا أنور السادات « ولم يغضب غضبك هذا ، وكان اعتذاره أنه لايجد حلا آخر ، عاجلا .

ووقفت زوجة العجل الجسد ، وأجلسته وهى غاضبة ، وحزينة ، وأخذت تعتذر للصديق الناقد ، وللمهندس المصرى عن سلوك زوجها العجل الجسد . وكان وجهه منتفخا « وأحمر » . ولم يرو لى الصديق الناقد بقية ما حدث .

أرض روم :

إلى « أرض روم » ينتسب أجداد العجل الجسد ذى الخوار ، ومنها جلبت امرأة فى القرن الميلادى التاسع عشر ، وحملت إلى مصر . كانت جميلة ملونة العينين ، فأهديت الى قصر الخديوى ، وصارت بين وصيفات الخدمة فى القصر ، وحملت لقب أسرتها فى « أرض روم » وصارت به تعرف . وزوجوها من أعرابى ، ليهنأ بلونها الأشقر ، وعينيها الزرقاوين الصفراوين ، فيكف عن قطع الطريق فى الصحراء . ومن قبل فتح العثمانيون ديار قومها (فى جمهورية جورجيا وتركيا الآن) ، فى القرن الميلادى السادس عشر) وصار رجال من أهلها قوادا فى الجيش العثمانى : أحدهم قتله أهل الشام إثر نصره عليهم لقسوته . وثانيهم قتله السلطان بتهمة الخيانة العظمى للدولة . وثالثهم اختفى ذكره وذكر أسرته من بعده فى التاريخ الجيورجى والعثمانى معا ، ويبقى العجل الجسد ذو الخوار ، يتغنى بمجد الإقطاع ، والعثمانيين ، ويلعن الجيورجيين

وأسلاف الجورجيين ، فى بلاد القفقاس ، ويندب زمانا يحياه ، يزاحمه فيه أبناء الفلاحين .

المثقفــــون
وجوه من الذاكـــرة

فى هذا الكتاب يقدم سليمان فياض لوحات قلمية ، عن نماذج وحـالات وأنماط من المثـقـفين : الأدباء منهم والمفكرون ، ترسم جانبا من الصورة الروحية والاجتماعية لأجواء الثقافة فى مـصـر ، طوال سنوات الثـورة ، وقـد كـتب المؤلف هذه اللوحـات بصورة تجمع بين التاريخ والقص ، والسيرة ، وتكشف أبعاد الخير والشر فى نفوس شخصياته ، وهى شـخـصيات متمايزة ومتباينه تعانى غالبا درجة أو أخرى من الفصام ، وما يصاحبه من توتر وقلق ، وشـعور بالعظمـة ، وشعور بالاضطهـاد ، ولا يخفف عنهم سوى الإبداع الذى يمارسونه ، ويحاولون به اسـتعادة التوازن ، وتحقيق الذات . إنهم فى النهاية بشر من البشر . ولسوف يحدث هذا الكتاب بنهـجـه وجـرأته صـدى واسـعـا بين المثقفين والقراء ، على السواء .

دار سعـــاد الصبـــاح
ص.ب : ٢٧٢٨٠
الصفاة ١٣١٣٣ - الكويت
ص . ب : ١٣ المقطم - القاهرة



